جيمس بالدوين

أحزان سوني

ترجمة

ناصرة السعدون

دار المأمون

اشتريته من شارع المتنبي ببغداد
في 23 / ذو القعدة / 1445 هـ
الموافق 31 / 05 / 2024 م

سرمد حاتم شكر السامرائي



أحزان سوني
و
الرجل الذي ذهب
الى شيكاغو



أحزان سوني

والرجل الذي ذهب الى شيكاغو

قصتان من الأدب الزنجي الأميركي

لجيمس بالدوين وريشاردرايت

ترجمة

ناصرة السعدون

دار المأمون للترجمة والنشر

بغداد ـ ١٩٨٩

دار المامون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد (٣٨٨) لسنة ١٩٨٩
توجه المراسلات الى :
دار المامون للترجمة والنشر
وزارة الثقافة والاعلام
بغداد ـ الجمهورية العراقية
ص . ب : ٨٠١٨
تلكس : ٢١٢٩٨٤
طبع بمطابع دار الحرية للطباعة ـ بغداد
مترجم عن الإنكليزية

المقدمة

ليس العالم وجوداً مجردا، انما هو الصورة التي تلتقطها العين البشرية لتعكسها الى ذهنه حيث تتفاعل مع احساسه الداخلي لتشكل الرؤية الذاتية .

عالم المدينة هو عالم متعدد الجوانب والاوجه، لا يمكن الاحاطة به الا برؤية متعددة الابعاد والزوايا. ولكل كاتب مبدع الزاوية التي عاشها وتأثر بها ثم عكس صورتها في عمله الابداعي. من هنا يكون الادب هو المرآة التي تعكس الرؤية متعددة الابعاد لعوالم المدن. وكلما زاد التصاق الكاتب بواقعه، كان ادبه اكثر تعبيراً عن زوايا رؤاه لعالمه. فكيف هي الرؤية الزنجية لعالم المدينة العملاقة التي قد تهدر انسانية من يعيش في زواياها المظلمة. وفي هذه القصص نجد صورة تختلف عن الصور المشرقة التي تنقلها رؤى المستفيدين من المدينة نفسها والمتنعمين بنعمها.

تروي هذه القصص نظرة الانسان الزنجي الى عَالم المدن الكبرى حيث البقاء للاقوى لا للاصلح و.من منهم يستطيع ان يعرف ما هو الاصلح؟.

الكل يتدافع ليحافظ على مكانه ومكانته فيها، وفي غمرة التدافع يتساقط الضحايا والضعفاء.

تغلب العامية على لغة القصص، وبخاصة حواراتها، الامر الذي يضفي عليها سمة الواقعية.

من جهة اخرى ان العامية التي تتسم بها لهجة زنوج امريكا تنم عن معاناتهم وطبيعة حياتهم، وذلك من خلال مفرداتها وتحوير كلماتها عن اللغة الاصلية.

يرى البعض ان عامية زنوج امريكا يمكن عدّها لغة منفصلة، فكما ان اللغة ـ اللهجة الامريكية مشتقة عن الانجليزية. كذلك اشتقت اللغة ـ اللهجة الزنجية عن الامريكية.

العامية الزنجية، سواء أكانت لغة أم لهجة، تعلمها الزنوج المحمولون قسراً من غابات افريقيا على متن سفن العبيد التي اسرتهم من قراهم ـ ذات اللغات الافريقية العديدة ـ وجعلتهم يتعلمون لغة السادة في مزارع القطن في الولايات الجنوبية. تعلموا اللغة قسراً ليتفاهموا فيما بينهم ومع سادتهم. تعلموها شفاهاً وتوارثوها شفاهاً. اختلطت فيها الكلمات الانجليزية المحورة، مع بقايا اللهجات واللغات الافريقية التي اختلطت بعضها ببعض بحكم المعاشرة والاختلاط. فظلت هذه الكلمات القليلة المتناثرة، اسوة ببعض التقاليد المنقولة والمكتسبة ـ ظلت ارثاً حضارياً ما زال الكثير من مصادره مجهولا.

أثرنا في هذه الترجمة عدم استخدام العامية تحاشيا للسقوط

في شرك المحليـة. فأي عامية نختار؟ فالعامية ليست شاملة وقد يصعب فهم مفرداتها. لهذا السبب عمدنا الى استخدام العربية البسيطة، اذ فيها من التنوع والتلون وقوة التعبير ما يكفي لنقل الصور التي اراد كتاب هذه القصص ايصالها الى القاريء دون مساس بمعانيها ومضامينها، مع تحاشي الالفاظ النابية التي تحفل بها اللهجات العامية بصورة عامة. الامر الذي جعل هذه الترجمة أمينة للمعنى دون الوقوع في حرفية النص، اذ لكل لغة تعبيراتها وامثالها واستخداماتها وهو ما حاولنا قدر الامكان الاحتفاظ بنكهته.

موسيقى الجاز هي ابتكار زنجي نبع من احساس الزنجي بالمعاناة للحياة المؤلمة التي عاشها الاجداد منذ وطئت اقدامهم ارض الوطن الجديد الذي اجبروا على العيش فيه، فعاشوا وتأقلموا مع الحياة الجديدة بكل ما حملته اليهم من ظروف حياة مختلفة كانت في اغلبها صعبة الى حد الألم، عبر الزنجي عن معاناته من خلال نبرة موسيقية خاصة تحمل عمق الألم وعنف الطبول الافريقية.

الموسيقى جزء لا يتجزأ من التراث الزنجي، يتنفسها واحدهم، يحياها، ولا ينفصل عنها، هي مثل سواد بشرته وتجعيدة شعره. الموسيقى اصالته ووطنه وحماه في المدن العملاقة، يلجأ اليها ويبثها المه وحزنه التاريخي الذي ورثه عن الاجداد المقتلعين من ادغال افريقيا،ليعيشوا عسف المجتمع الابيض الذي يرفضهم

لكنه لا يستغني عن وجودهم.

في هذه القصص نرى معاناة الزنجي التي يعبر عنها بالقيثارة او البيانو، فالموسيقى هي الرفيق والسلوى، هي اللغة والقضية، هي اولاً واخيراً اداة التواصل مع رفاق طريقه حين تعجز اللغة المحكية عن التعبير. يهرب الزنجي بموسيقاه من ظلمة ايامه ليختبىء في ظلمة حانات المدينة العملاقة حيث يواجه الاما جديدة و مخاطر عظيمة: الفساد، الجريمة، المنظمة والمخدرات.

المخاطر هذه هي الصليب الذي يحمله الزنجي في مدن امريكا، يحمله ويصعد به طريق الآلام. يخيل له ان بامكان المخدرات ان تمنحه طريقاً للهرب من ظلم الواقع، فيجد نفسه اسيرها، فيهرب منها الى المصحّ ليشفى منها، ثم يعود الى الشارع من جديد حيثما بدأ، تلفه الدوامة من جديد. اذ الآلام دائرة مفرغة فهل من مفر؟.

قصة (أحزان سوني) يصور فيها جيمس بالدوين ما يعانيه شاب زنجي في حياته، هذه المعاناة يعكسها في موسيقى الجاز باحساس مرهف عميق. وجيمس بالدوين قادر عن التعبير دون مواربة، ولكن بلغة شفافة اقرب الى الصور الشعرية، عن هذه المعاناة لانه عاش اجواءها وقاسى بسببها الامر الذي دفعه الى مغادرة وطنه هرباً من قسوة ابناء جلدته لكي يضيع في اجواء قارة اوربا العتيقة فلا يكون مضطراً الى مجابهة الاضطهاد الابيض لزنجيته التي يفخر بها ولا يحاول اخفاءها او الخجل منها.

يقـول جيمس بالدوين: (كـان عليّ الذهاب الى مكان ما حيث استـطيع النجاح كاتباً. الفرنسيون لم يروني، ومن جهة اخرى كانـوا يراقبـونني. بعض النـاس اعتنوا بي ولولاهم لمت. لكن الفرنسيين تركوني وشأني). ذلك ما قاله في مقابلة صحفية اجراها معه مراسل مجلة تايم في عام ١٩٧٣. لكن امريكا لا تعرف الرحمة، او الغفران: اذ رفضت مجلة التايم نشر المقابلة حينذاك، وظلت حبيسـة اوراق المحـرر حتى نشرتهـا مجلة Southern Review الفصلية في عددها الصادر صيف ١٩٨٥ وهي مجلة تعنى بادب الزنوج.[*]

القصة الثانية (الرجل الذي ذهب الى شيكاغو) اقرب الى المقالة منهـا الى القصـة. حاول مؤلفها ريشارد رايت ان يحلل المجتمع والحـالة الفكرية السائدة فيه من وجهة نظر زنجي من الجنوب الامريكي. يستخدم فيها حكايات متناثرة قد تكون قليلة الاهمية، لكنها في السياق العام تؤشر الى ما يرمي اليه من تحليل، اذ تبرهن الحكاية على دلالات التحليل وتضفي عليه بعداً واقعياً لا يمكن اغفاله.

هذه الحكـايـات المتنـاثرة - على الرغم من بساطتها و غرابة بعضهـا - تعكس رؤيـة الزنجي الجنـوبي للمـظاهر السلوكية اللامبـاليـة، والتي يفسرها في البداية على انها شكل من اشكال المساواة التي يرنو اليها والتي قد تؤدي الى القضاء على التمييز

---

* ترجمت المقابلة ونشرت في مجلة آفاق عربية - العدد الثاني عشر في كانون الاول ١٩٨٥.

العنصري. لكنه، و بحركة بارعة، يعود ليعطي دلالة جديدة على ان هذه المساواة ليست الا ستارا تحجب وراءها الاحساس الحقيقي للامريكي الابيض تجاه الزنوج، وسواء أكان هذا الابيض شمالياً من شيكاغو، او جنوبيا من حوض الميسيسبي، عاملاً كان ام صاحب عمل.

هذه القصة هي نموذج لبراعة الكاتب ريشارد رايت في تكوين بنية القصة باستخدام عوامل شتى قد تبدو للوهلة الاولى متفرقة، لكنها بمجموعها تعطي صورة متكاملة لما يريد ايصاله الى القاريء من رسالة. وتتلخص رسالة ريشارد رايت الى القاريء ان لا عدالة في امريكا. وكما يقول في خاتمة قصته:

«..ابقتنا امريكا سجناء ظلمة العالم السفلي للحياة الامريكية مدة ثلاثمائة عام، فخلقنا قواعدنا الخاصة في الاخلاق والقيم والولاء..».

بأمل ان اكون قد وفقت في اختيار وترجمة هذه القصص.

المترجمة
ناصرة السعدون

جيمس بالدوين

أحزان سوني

قرأت الخبر في الصحيفة في طريقي الى العمل. قرأته ولم استطع تصديقه ، فقرأته مجددا. او ربما حدقت الى ورقة الجريدة التي نشرت اسمه والحكاية كلها. نظرت اليها تحت أضواء عربة القطار المتراقصة وفي وجـوه الناس واجسادهم، وفي وجهي الذي تحاصره الظلمة التي تضج في الخارج.

امر لا يصدق، ظللت اكررها لنفسي وانا اسير من محطة القطار الى المدرسة الثانوية. وفي الوقت نفسه لم اكن قادرا على الشك به. كنت خائفا، خائفا على سوني. صار واقعيا بالنسبة لي مرة اخرى. استقرت كتلة عظيمة من الجليد في اعماقي وهي تذوب ببطء طوال اليوم ظلت تذوب وهي تبعث نتفا من الماء المثلج في اوعيتي الدموية صاعدة هابطة دون ان يقل حجمها. فهي تتصلب احياناً وتبدو متوسعة حتى احس ان احشائي ستنفجر او انها تخنقني او تدفعني الى الصراخ. يحصل لي هذا دوما في اللحظة التي اذكر شيئا معينا قاله سوني او فعله فيما مضى.

حين كان بعمر الطلاب الذين ادرسهم في صفوفي كان وجهه ذكيا

ومنفتحا وفيه الكثير من لون النحاس، وله عينان بنيتان رائعتان ويتسم برقة عظيمة وتفرد. وتساءلت عن مظهره الان. لقد القي القبض عليه في الامسية السابقة اثناء كبس احدى الشقق في مركز المدينة بتهمة تعاطي المخدرات وتداولها.

لم اكن قادرا على التصديق: وما اعني بذلك هو اني لم اجد له مكاناً في اعماقي. لقد ابقيته خارجاً مدة طويلة. لم اشأ ان اعرف. راودتني الشكوك، لكني لم اعترف بها، وابعدتها. قلت في نفسي ان سوني فتى جامح لكنه ليس مجنوناً. وكان على الدوام طيبا، لم يمارس قسوة او يرتكب شراً ولم يتصرف بعدم احترام أو يصل الى ما وصل اليه الفتيان سريعا، سريعا وعلى نحو عجيب وبخاصة في هارلم. لم اشأ ان اصدق اني رأيت اخي وهو يتدنى حتى يصل الى العدم، كل النور في وجهه اختفى في الظروف التي سبق ان شاهدتها لدى العديد من الآخرين. ومع هذا حدث الامر، وها انذا اتحدث عن الجبر الى الفتيان الذين يحتمل ان يلجأ اي منهم الى زرق ابر المخدرات بعد مغادرتهم المدرسة.

كنت موقناً ان المرة الاولى التي تناول سوني فيها المخدرات لم يكن اكبر سنا من هؤلاء الفتية الان. هؤلاء الفتية يعيشون اليوم كما كنا نعيش، يكبرون بسرعة حتى تصطدم رؤوسهم بالسقوف الواطئة التي يعيشون في ظلها والفرص الضيقة التي يتيحها لهم واقعهم. يملؤهم الغضب. ما يعرفونه حق المعرفة هو ظلمتان، ظلمة حياتهم التي تطبق على انفاسهم في الوقت الحاضر، وظلمة دور البسينما التي اعمتهم

حتى عن ظلمتهم الاخرى فصاروا يحلمون بكل حقدهم انهم عادوا معا مرة اخرى كما كانوا في يوم ما، واكثر توحدا.

حين رن الجرس الاخير وانتهى الدرس الاخير تنفست الصعداء. وبدا كما لو أني حبست انفاسي طوال ذلك الوقت . كانت ملابسي رطبة - قد يكون مظهري مثل من جلس في حمام بخاري بكامل ملابسه طوال بعد الظهيرة. جلست وحيدا في الصف فترة طويلة. استمع الى الفتيان في الخارج، وهم يتصايحون ويتشاتمون ويتضاحكون. صدمني ضحكهم أول مرة. انها ليست الضَحكة المرحة التي ترتبط في اذهاننا بالطفولة والله وحده يعرف السبب. بل ضحكة ساخرة ومهينة تتقصد تشويه صورهم. كانت تخلو من السحر وهنا ايضا نجد قوة شتائهم. ربما انصت اليهم لاني كنت افكر بأخي واسمع فيهم صوته. وصوتي.

احد الفتيان يصفر لحناً، معقداً جداً وبسيطا في الوقت نفسه ينطلق منه كما ينطلق من البلبل، هادئاً شجياً يجتاز الهواء القاسي الساطع محتفظا بتفرده بين جميع الاصوات الاخرى.

نهضت ومشيت الى النافذة لانظر الى ساحة المدرسة. انها بداية الربيع وحيوية الفتيان تتصاعد. احد المدرسين يخترق حشدهم بين آن واخر مسرعا وكأنه ينتظر بفارغ الصبر الخروج من الساحة، ليبعد الفتيان عن نظره وافكاره؟ بدأت اجمع اشيائي. فكرت ان من الافضل لي الذهاب الى البيت لاحدث ايزابيل.

حين وصلت الساحة كانت شبه خالية. رأيت فتى واقفا في ظل البوابة وكأنه سوني. اوشكت ان اناديه باسم اخي. ثم عرفت انه ليس

سوني، بل احد الفتية الذين اعرفهم، فتى اعتاد الوقوف في حارتنا. كان احد أصدقاء سوني. لم يكن صديقي ابدا لانه اصغر مني بكثير. وانا على اية حال لم احبه مطلقا. والان، رغم انه صار رجلا لا يزال يتسكع في الحارة، يقضي الساعات الطوال في زوايا الشوارع اشعث و متعاليا. اعتدت ملاقاته بين وقت واخر ويطلب مني على الدوام ربع دولار او خمسين سنتا. لديه دوما اسباب وجيهة لذلك، فاعطيها له، دون ان اعرف لماذا.

اما الان فقد كرهته فجأة. لم اتحمل الطريقة التي ينظر بها الي، هي نظرة. بين نظرة الكلب ونظرة الطفل الماكر. اردت سؤاله عن سبب وقوفه في ساحة المدرسة.

اتجه نحوي بما يشبه الزحف وقال «حصلت على الصحف. فانت تعرف بالموضوع اذا».

«تعني بشأن سوني؟ نعم اعرف. كيف لم يقبضوا عليك؟».

ابتسم. الامر الذي جعله مقززا وذكرتني ابتسامته في الوقت نفسه انه ليس اكثر من طفل «لم اكن هناك. فأنا ابتعد عن هؤلاء الناس».

«ذلك من مصلحتك» اعطيته سيجارة وراقبته من خلال دخانها «هل مشيت الطريق كله لتخبرني عن سوني؟»

«هذا صحيح» كان يهز رأسه بطريقة خاصة فبدت عيناه غريبتين، كما لو انهما اقرب الى الحول. التمعت اشعة الشمس على جلده الاسمر البراق فأضفت على عينيه صفرة، وكشفت عن قذارة شعره المجعد. رائحته مقززة. ابتعدت عنه قليلا وقلت «حسن، شكرا لك. لكني اعرف

الأمر وأفضل الذهاب الى المنزل».

«ســأسير معك قليلا» قال لي: بدأنا السير. ما زال بعض الصبية يتسكعـون في ساحة المدرسة، وتمنى لي احدهم ليلة طيبة وهو ينظر باستغراب الى الفتى الذي يسير معي.

«ماذا ستفعل؟». سألني «اعني بشأن سوني؟»

«انظر. لم التق بسوني منذ ما يزيد على السنة، ولست متأكدا اني سأفعل شيئا. على اية حال، ماذا بامكاني ان افعل بحق السماء؟».

«هـذا صحيح» قال بسرعة «ليس من شيء بامكانك فعله. لم تعد مساعدة سوني ممكنة على ما اظن.».

ذلك فعــلا هو ما جال في ذهني، ومــع ذلك لم يكن من حقــه التصريح به.

«مع هذا، فسوني يدهشني» استمر بالقول، ان له طريقة مضحكة في الكلام، كان ينظر الى الامام كما لو انه يكلم نفسه «كنت اظن سوني ذكيا، كنت اظنه اذكى من ان يعرض نفسه للشنق».

«اظن ان ذلك هو ما تصوره بدوره» قلت بحدة «وتلك هي الطريقة التي سيشنقونه بها. وماذا عنك؟ انت شديد الذكاء، واراهن على ذلك».

عند ذلك نظر الي مباشرة ما يقارب الدقيقة لا اكثر «لست ذكيا» قال «لو كنت ذكيا لرفعت السلاح منذ زمن بعيد».

«إسمع. لا تحك لي قصتك الحزينة، لو كان الامر بيدي لاعطيتك مسدسا» ثم شعرت بالذنب ـ الذنب بعدم تصوري ان للفتى المسكين قصته الخاصة. وقصة حزينة فوق ذلك، فسألته بسرعة «ماذا سيحدث

له الان؟».

لم يرد على سؤالي. فلقد ابتعد بافكاره عني «شيء مضحك» قال، وكانت لهْجته كما لو اننا نتناقش عن اقرب طريق الى بروكلين «حين رأيت الصحف هذا الصباح، اول سؤال وجهته الى نفسي ان كانت لدي اي علاقة بالموضوع. احسست بشيء من المسؤولية.».

بدأت انصت اليــه بانتباه اشد، كانت محطة القطار في زاوية الشــارع، امامنا فتوقفت. توقف بدوره. كنا نقف امام حانة. انحنى قليلا لينظر الى داخلها، ولكن يبدو ان الشخص الذي يبحث عنه ليس موجودا. كان جهاز الموسيقى الالي يزعق بلحن راقص اسود، راقبت عاملة الحانة وهي تمشي متراقصة في طريقها بين صندوق الموسيقى ومكانها وراء البار. لاحظت وجهها وهي تستجيب متضاحكة لشيء ما قاله احدهم، مع مراعاتها للنغمة الموسيقية. حين ابتسمت لاح عليها مظهــر فتــاة صغيرة يتوقع المرء سقوطها في الهاوية وهي تصارع في اعماقها المرأة ذات الوجه الاقرب الى وجوه العاهرات.

«لم اعط سوني شيئا» قال الفتى اخيرا «ولكن، منذ زمن بعيد كنت آتي الى المدرسة تحت تأثير المخدر فسألني سوني عن شعوري آنذاك» توقف برهة، لم احتمل مراقبته، فاتجهت ببصري نحو النادلة واستمعت الى المــوسيقى التي بدت وكــأنهــا تهز الرصيف. «اخبرته اني احس احســاســا عظيمــا» توقفت المــوسيقى، توقفت النادلة وظللت احدق بصندوق الموسيقى حتى بدأ مجددا «وكان ذلك هو احساسي حقا».

كل هذا يحملني الى مكـان لا أرغب في الذهاب اليه. فأنا من المؤكد لم ارغب في معرفة احساسه. كان يملأ كل شيء بالتهديد، كل شيء: الناس، البيوت، الموسيقى، السود، نادلة الحانة المتراقصة، وكان هذا التهديد هو واقعهم.

«ماذا سيحدث له الان؟» سألت مرة اخرى.

«سيرسلونه الى مكان ما ليحاولوا شفاءه» هز رأسه «ربما سيتصور نفســه قد تخلص منهـا. ثم يطلقـون سراحــه» رمىٰ سيجارته في

«ســيرسلونــه الى مكان ما ليحاولوا شفاه» هز رأسه «ربما سيتصور نفســه قد تخلص منها. ثم يطلقون سراحه» رمىء سيجارته في سلة المهملات «ذلك كل شيء».

«ماذا تعني بذلك كل شيء؟».

لكني كنت اعرف ما يعني.

«اعني ذلك كل شيء» ادار رأسه ونظر الي وهو يسحب طرفي فمه الى الاسفل «الا تعرف ما اعني؟» سألني بلطف.

«وكيف اعـرف بحق الجحيم ما تعنيـه ؟» كانت نبرتي اقرب الى الهمس دون ان اعرف لماذا.

«ذلك صحيح» قال موجها كلامه الى الهواء «كيف يعرف ما أعني؟» استدار الي مجددا صبورا هادئا ومع ذلك احسست على نحو ما انه يرتجف ، يرتجف كما لو انه سيتمزق اربا. عاودني الاحساس بالثلج في اعماقي بالرعب الذي لازمني طوال بعد الظهر، ومرة اخرى راقبت النادلة وهي تتحرك في الحانة، تغسل الكؤوس وهي تغني «اسمع سوف

يطلقون سراحه ثم يعاود الامر من جديد. ذلك ما اعني».

«تعني ـ سوف يطلقـون سراحـه. ثم يبـدأ في شق طريقه للعودة مجددا. أتعني انه لن يتخلص من ادمانه . أهذا ما تعني؟».

«هذا صحيح» قال بحبور «بدأت ترى ما اعنيه»

«قل لي» قلت اخيرا لماذا يسعى الى حتفه؟ لابد انه يريد الموت، انه يقتل نفسه فلماذا يسعى الى الموت؟»

نظر الي مندهشا. تلمظ وقال«انه لا يريد الموت. بل يريد الحياة. لا احد يريد الموت ابداً».

ثم اردت سؤاله عن الكثير من الامور لم يكن ليجيبني وان اجاب، لم اكن لا تحمل هذه الاجابات. بدأت بالسير «حسن لا اظنني معنيا بالامر».

«سيكون الامر قاسياً على سوني» قال.وصلنا محطة القطار «أهذه محـطتك» سألني فاجبت بهزة من رأس. هبطت درجة «اللعنة!» قال فجأة. رفعت نظري اليه. ابتسم مرة اخرى «اللعنة» تركت كل نقودي في البيت. الا تحمل دولارا؟ سأعيده لك بعد يومين لا اكثر».

فجأة تصاعد في اعماقي احساس يهدد بالانفجار. لم اعد اكرهه احسست اني سوف انفجر باكيا في اللحظة التالية مثل طفل صغير.

«بلا شك» قلت لا تقلق بحثت في محفظتي ولم اجد فيها دولاراً، ليس الا خمسة دولارات «خذ» قلت له «أيكفينك هذا؟»

لم ينظر الى النقود ـ لم يرد النظر اليها. غمرت وجهه نظرة رهيبة كما لو انه يريد الاحتفاظ بكمية النقود سرا عن نفسه وعني «شكرا» قال،

وبدا انه يتمنى رؤيتي مبعدا عنه «لا تقلق بشأن سوني. ربما كتبت له او ما شابه».

«طبعا» قلت له «افعل ذلك. الى اللقاء».

«سأراك» قال. وهبطت الدرج.

لم اكتب لسوني او ابعث اليه بشيء مدة طويلة. وحين فعلت، وكان ذلك بعد فترة قصيرة من وفاة ابنتي الصغيرة، اجابني برسالة جعلتني اشعر بحقارة نفسي.

كتب لي قائلا:

اخي العزيز،

لا تعرف كم كنت بحاجة لاسمع منك. اردت مرارا الكتابة اليك لكني ادركت مدى عمق الجرح الذي سببته لك فامتنعت. لكني الان احس أني رجل يسعى للتسلقِ من حفرة عميقة، عميقة الغور وبشعة وارى الشمس هناك في الخارج. لابد لي من الخروج.

لا استطيع اخبارك كيف وصلت الى هنا. اعني لا اعرف كيف اخبرك. اظنني كنت مرعوبا او ما شابه احاول الهرب من شيء ما، وانت تعرف اني لم اكن قوي الشكيمة في يوم ما (ابتسامة). اني سعيد لان ابي وامي توفيا قبل ان يريا ما حدث لابنهما، واقسم لو اني عرفت بما سيحصل لي، لما آلمتك الى هذا الحد، انت والعديد من الناس الطيبين الذينَ تلطفوا معي وآمنوا بي.

لا اريدك ان تفكر ان ما حصل قد حصل بسبب كوني موسيقيا. فالامر اكثر من ذلك. او ربما اقل. لا استطيع التفكير المستقيم هنا،

واحـــاول ان لا افكر بما سيحصل لي حين اخرج من جديد. اتصور احيانا اني سأموت هنا ولن أخرج ابدا، وفي احيان اخرى افكر اني ساخرج مباشرة. اريد اخبارك بشيء، اني افضل ان احطم رأسي على ان امر بهذه التجربة من جديد. ولكن ذلك هو ما يقولونه جميعا، هكذا اخبـروني. ان ابلغتـك موعـد خروجي، ووصـولي الى نيويورك، وان استـطعت ملاقـاتي فسيكون امتناني عظيما. بلغ ايزابيل والاطفال محبتي، وتألمت لما وقع للصغيرة غريس. تمنيت لو كان لي عمق ايمان امي، ولكني لا اعـرف ويبدو ان المشاكل هي الشيء الوحيد الذي لا يتوقف ولا اعرف من الملام على ذلك. ولكن ربما كان الايمان مفيداً.

اخوك

سوني

بعـــد ذلك بقيت على اتصــــال مستمـــر به، وارسلت له كل ما استـطعت، وذهبت لاستقبـاله حين وصــل نيـويورك. حين شاهدته عاودتني ذكرى الكثير من الاشياء والافكار المنسية. وسبب ذلك اني بدأت اخيرا بالتساؤل عن سوني، وعن الحياة الداخلية التي عاشها سوني. فهذه الحياة، مهما كانت، جعلته يبدو اكبر سنا واكثر نحافة وعمقت الهـدوء النــائي الذي ميـزه على الدوام فلم يعد يشبه اخي الصغـير، ومع هذا وحين ابتسم ونحن نتصافح نظر الي اخي الطفل الذي لم اعـرف شيئا عن اعماق حياته الخاصة، انه اشبه بحيوان ينتظر من يدفعه الى الضياء.

«كيف احوالك؟» سألني.

«بخير وأنت؟».

«بخير» كان يبتسم بكل قسمات وجهه «رائع ان اراكم جميعا».

«رائع ان نراك».

امتدت السنوات السبع التي تفصل عمرينا مثل هوة: وتساءلت ان لم يكن بالامكان ان تكون هذه السنوات جسراً يوصل بيننا. كنت اتذكر فصعب علي التنفس، تذكرت اني كنت موجوداً حين ولد، وسمعت الكلمات الاولى التي تلفظ بها. وحين بدأ خطواته الاولى سار من بين ذراعي امي الي مباشرة، وامسكت به قبل ان يسقط.

«كيف ايزابيل؟».

«بخير. انها متشوقة لرؤياك».

«والاولاد؟».

«بخير ايضا. ويتلهفون لرؤية عمهم».

«اوه، لا تمزح، فانت تعرف انهم لا يتذكرونني»

«اتمزح؟ انهم يذكرونك حتما».

ابتسم ثانية. ركبنا سيارة اجرة. لدينا الكثير لنقوله، الكثير بحيث لم نعرف كيف نبدأ.

بدأت سيارة الاجرة بالسير. سألته «أما زلت تود الذهاب الى الهند؟».

ضحك «أما زلت تذكر هذا. يا للسماء لا. فهذا المكان هندي بما

يكفيني».

«كان ملكا لهم في الماضي» قلت.

ضحك مرة اخرى «ومن المؤكد انهم عرفوا مصلحتهم حين تخلصوا منه».

منذ سنوات بعيدة، حين كان في حوالي الرابعة عشرة انتابه هوس الذهاب الى الهند قرأ الكتب التي تحكي عن اناس يجلسون على الصخور عراة وفي مختلف المناخات، انما في الاغلب في المناخات القاسية، ويسيرون حفاة على الجمر فمن الطبيعي ان يصلوا الى الحكمة. اعتدت ان اقول اني اعتقد انهم بذلك يسيرون بعيدا عن الحكمة باسرع ما يستطيعون. واعتقد انه احتقرني لهذا الرأي.

«أتمانع» سألني «ان طلبنا من السائق ان يسير بنا بمحاذاة الحديقة العامة؟ في الجانب الغربي اذ لم اشاهد المدينة منذ زمن بعيد».

« من الطبيعي ان لا امانع» قلت وغالبتني الخشية لئلا يتصورني اسخر منه، لكني تمنيت ان لا يفعل.

هكذا سارت بنا السيارة بين خضرة الحديقة من جانب والاناقة الحجرية الميتة للفنادق وابنية الشقق، باتجاه ازقة طفولتنا الحية والقاتلة. لم تتغير هذه الازقة رغم المشروع السكني الذي يبرز بينها وكأنه الصخرة التي تتوسط البحر. اختفت اغلب البيوت التي ترعرعنا فيها، كما أختفت المخازن التي كنا نسرقها، والسراديب التي أختبأنا فيها، والسطوح التي رمينا منها العلب الفارغة والاحجار. لكن بيوتا

تشبـه بيوت ماضينا ما زالت تسيطر على المنظر، واولاداً مثل الاولاد الذين كناهم موجودون في هذه البيوت، ينزلون الى الشوارع بحثا عن الهواء النقي فيجدون انفسهم محاصرين بالفاجعة . بعضهم افلت من الفخ، واغلبهم سقط فيه. اولئك الذين غادروا بقي شيء من ذواتهم هنا، كما تفعل الحيوانات التي تفلت من المصيدة تاركة وراءها اصبعا او قدمـا اطبقت عليـه المصيدة. ربما امكن القول اني افلت منه، فأنا مدرس، او ان سوني قد افلت منه فهو لم يعش في هارلم منذ سنوات. ومع ذلك ظلت سيارة الاجرة تسير بنا في ازقة بدت في هذه العجالة كما لو انها اسودت بفعل سواد بشرة ساكنيها. تفحصت وجه سوني سرا، خطر لي ان كلا منا يبحث عبر نافذتي سيارة الاجرة عن ذلك الجزء من ذاتـه الذي تركه وراءه. وهذا الجزء المفقود هو الذي يؤلمنا في ساعة وقوع المشاكل او المجابهات.

وصلنـا الشـارع (١١٠) وبدأنا بالسير نحو شارع لينوكس. اعرف هذا الشارع طول عمري ، لكنه اليوم بدا لي كما كان في اليوم الذي سمعت فيه بمشكلة سوني، مليئا بالمخاطر المبطنة التي تشكل عصب الحياة فيه.

«اوشكنا على الوصول» قال سوني.

«تقريبا» كنا من الارتباك بحيث لم نقدر على قول المزيد.

نحن نسكن في احد المشاريع السكنية منذ مدة قريبة. بعد ايام قليلة من انشائها بدت جديدة وغير قابلة للسكن. اما الان فقد تقادمت بلاشك. لها شكل المحاكاة الهزلية للحياة الطيبة النظيفة ـ ويعلم الله

ان من يعيشون فيها يفعلون ما بوسعهم لزيادة المحاكاة. فالثيل التالف لا يصل حد الشوارع، وهم يعرفون ذلك. النوافذ الكبيرة في كل مكان لا تكفي لبعث الخضرة في حياتهم، والاسيجة لا تخدع احداً، فهي ليست من الاتساع بحيث تزيد من حجم الفضاءات إذ لا يوجد فضاء. انهم لا يهتمون بالنوافذ، ويكتفون بالتفرج على اجهزة التلفزيون بدلاً عنها. ساحة اللعب هي المكان المفضل للاطفال الذين لا يلعبون بالالعاب الطفولية. ويمكن رؤيتهم فيها بعد حلول الظلام. انتقلنا هنا لان المكان ليس بعيدا عن مدرستي من جهة وبسبب الاطفال من جهة اخرى، لكنها في الواقع تشبه البيوت التي ترعرعت فيها مع سوني. الاحداث هي نفسها، وستكون لديهم الذكريات نفسها. في اللحظة التي دخلت المنزل فيها مع سوني احسست اني اعود به الى الخطر الذي كاد أن يودي به الى الموت والذي هرب منه.

لم يكن سوني كثير الحديث. لهذا لا اعرف سبب يقيني انه يتحرق شوقا ليحادثني بعد انتهاء العشاء في الليلة الاولى. سارت الامور على احسن حال، تذكره ابني البكر، واحبه ابني الاصغر، ولم ينس سوني ان يحمل هدية لكل منهما، وسعت ايزابيل، وهي اكثر لطفاً وانفتاحا مني، لتجعل العشاء بأفضل صورة، وكانت سعيدة حقاً برؤيته. كانت دوما قادرة على ممازحة سوني بطريقة لم انجح فيها. سعدت لمشاهدة وجهها ضاجا بالحيوية من جديد وسماع ضحكتها ومراقبتها وهي تدفع سوني الى الضحك. لم تكن مرتبكة او انها على اية حال لم تظهر ارتباكها. تحدثت كما لو لم يوجد اي موضوع يجب عليها

تجنبه، وساعدت سوني في اجتياز الهنيهات المتوترة الاولى. شكرت الله على وجودها معنا، لأني كنت مليئاً بذلك الاحساس من الرعب البارد. وبدا كل ما افعله مثار استغراب، كما بدا كل ما اقوله محملا بالمعاني المزدوجة . كنت احاول تذكر كل ما سمعته عن الادمان ولم استطع الامتناع عن مراقبة سوني بحثاً عن دلائل الادمان لديه. لم يكن قصدي سيئا. بل كنت احاول معرفة شيء ما عن اخي. كنت اتحرق شوقاً لسماع ما يطمئنني عليه.

«آمن!» كان ابي يغمغم كلما اقترحت امي محاولة الانتقال الى محلة اكثر امناً للاطفال. «آمن، بحق الجحيم ليس من مكان آمن للاطفال، او غيرهم».

ذلك كان حاله، لكنه لم يكن بالسوء الذي يظهر من كلامه، ولا حتى اثناء عطلات نهايات الاسبوع حين يثمل في الواقع، كان يبحث باستمرار عن «شيء افضل» لكنه مات قبل العثور عليه. مات فجأة، اثناء عطلة نهاية الاسبوع وهو مخمور كان ذلك في اواسط الحرب، حين كان سوني في الخامسة عشرة. لم ينسجم مع سوني، وسبب ذلك ان سوني كان قرة عينه، ولأنه يحبه كثيراً كان يخاف عليه فيتشاجر معه باستمرار. لا فائدة من المشاجرة مع سوني. اذ لا يفعل سوني الا ان ينسحب الى دواخله حيث لا يصله احد. لكن السبب الجوهري في عدم انسجامهما هو الشبه الكبير بينهما. كان ابي ضخما، خشنا وعالي النبرة، على النقيض من سوني، ولكن لكليهما التفرد ذاته.

حاولت امي ان تخبرني شيئا بهذا الشأن، بعد وفاة ابي. كنت

في البيت في اجازة من العسكرية.

كانت تلك هي المرة الاخيرة التي ارى امي فيها وهي على قيد الحياة. مع ذلك تختلط صورتها هذه في ذهني مع صورها حين كانت شابة. الصورة التي اراها على الدوام في ذهني هي ما كانت عليه بعد ظهر ايام الاحد وبعد تناول الغداء الفخم المعتاد في ايام الآحاد حيث اراها ترتدي دوما ثوبا فاقع الزرقة.

تجلس على الاريكة ويجلس ابي على كرسيه المعتاد ليس بعيدا عنها. وتكون غرفة الجلوس مليئة بالكنسيين والاقرباء. يجلسون على كراس في جميع ارجاء غرفة الجلوس، والليل يزحف في الخارج ولكن لا احد يعرف بعد. يمكن مشاهدة الظلمة تتوسع في النافذة وتسمع اصوات الشارع بين آونة واخرى، او ربما قرقعة طبل من احدى الكنائس القريبة، لكن الهدوء يعم الغرفة. ولبرهة، لا احد يتكلم، لكن الوجوه تزداد دكنة مثل السماء في الخارج. يهتز جذع امي، ويغلق ابي عينيه. الجميع ينتظر شيئا لا يراه الاطفال. ينسون الاطفال برهة. ربما يغفو أحدهم على السجادة. او ربما ينام اخر في حضن احدهم فيمد يده ليمسد رأس الطفل دون تفكير. وربما تقوقع طفل هادىء واسع العينين في الكرسي الكبير في الزاوية. الصمت والظلام آتيان، فتخيف ظلمة الوجوه الطفل بغموضها. فيتمنى ان لا تتوقف اليد التي تربت رأسه يتمنى ان لا يموت ابدا. يتمنى ان لا يجيء الوقت الذي لا يجلس الكبار فيه في غرفة الجلوس، وهم يحكون عن الاماكن التي جاؤوا منها وما شاهدوه وما حدث لهم ولأهليهم.

لكن شيئا عميقا يترقبه، ويعرف الطفل ان لابد من نهاية، وانه اوشـك على الانتهـاء. فخلال لحظة سينهض احدهم لينير المصباح. حينذاك سيتذكر الكبار وجود الصغار ولن يستمر حديثهم هذا اليوم. وحين يملأ الضياء ارجاء الغرفة، يمتلىء الطفل بالظلمة. فهو يعرف ان كل مرة يحدث فيها مثل هذا تدنيه اكثر من الظلمة في الخارج. الظلمة في الخارج هي ما يتحدث عنه الكبار انها من حيث جاؤوا. وهي ما يثقل كواهلهم. يعرف الطفل انهم سيتوقفون عن الحديث فمن خلال حديثهم سيعرف اكثر مما يجب، عن الاحداث التي مرت بهم. سيعرف اكثر مما يجب وابكر مما يجب، عما سوف يحدث له.

في المـرة الاخيرة التي تحدثت فيها مع امي. اذكر انها كانت مضطربة. وانا اريد الخروج لمقابلة ايزابيل. لم نكن قد تزوجنا بعد وما زال لدينا الكثير لنقوله.

جلست امي مرتدية السواد قرب النافذة. كانت تغمغم باغنية كنسية قديمة (يا الهي، جئت بي من طريق بعيد). سوني في مكان ما خارجا. ظلت امي ترقب الشوارع.

«لا ادري» قالت «ان كتب لي رؤيتك مرة اخرى بعد ذهابك عنا. لكني امل ان تذكر ما علمتك اياه».

«لا تتحدثي على هذا النحو» قلت مبتسما «ستظلين معنا مدة طويلة»..

ابتسمت بدورها ولم تقل شيئا. ظلت ساكنة مدة طويلة. قلت لها، «ماما، لا تقلقي. ساكتب لك باستمرار وسيصلك التحويل..»

«اريد التحدث اليك بشأن اخيك» قالت فجأة «ان حدث لي شيء فلن يرعاه احد».

«ماما» قلت لها «لن يحدث لك او لسوني شيء. سوني بخير. انه فتى طيب وله عقل راجح».

«ليست مسألة كونه فتى طيبا» قالت ماما «ولا رجحان عقله. ليس السيئون او الاغبياء هم من يبتلعهم تيار الحياة» توقفت ونظرت الي «كان لأبيك أخ» قالت وابتسمت بطريقة جعلتني احس بألمها.

«لم تعرف بذلك من قبل، اليس كذلك؟».

«لا» قلت «لم اعرف» وحدقت في وجهها.

«آه، نعم كان له اخ» ونظرت الى خارج النافذة مجددا «اعرف انك لم تر اباك باكيا. لكني رأيته ـ مرات عدة، خلال هذه السنوات الطويلة».

سألتها «ماذا حدث لأخيه؟ كيف لم اسمع احدا يتحدث عنه؟»

تلك هي المرة الاولى التي اشاهد أمي فيها والشيخوخة بادية عليها.

«قتل اخوه» قالت حين كان اصغر منك قليلا. كنت اعرفه. كان فتى طيبا. ربما كان الشيطان يتملكه بعض الشيء، لكنه لم يسع لأيذاء احدا»

توقفت، فسكنت الغرفة، كما يحدث تماما في ايام الاحاد بعد الظهيرة. ظلت امي تنظر الى الشوارع.

«كان يعمل في المطحنة» قالت «وكما هي حال جميع الشباب، كان

يحب الحركة في ليالي السبت. ففي ليالي السبت كان يخرج مع ابيك الى اماكن شتى، الى المراقص وما اشبه او يجلسان ببساطة مع معارفهم ويبدأ عمك بالغناء، اذ كان يمتلك صوتا رخيما، ويصاحب غناءه بالعزف على قيثارته. حسن، في امسية السبت كان عائدا مع ابيك من مكان ما وهما ثملين الى حد ما، والقمر بدر في تلك الليلة، والسماء منيرة وكأن النهار لم يزايلها. كان عمك يشعر بالارتياح فصار يصفر لحنا والقيثارة معلقة على كتفه. كانا ينزلان التل تحتهما استدارة الطريق المؤدية الى الطريق العام. حسن، قرر عمك، المتهور ان يركض هابطا التل وهكذا فعل، قيثارته تتقافز وراءه، ركض مجتازا الشارع ووقف يقضي حاجته وراء شجرة. ظل ابوك يهبط التل متهادياً وهو يستمتع بمنظر اخيه. ثم سمع صوت محرك سيارة في اللحظة التي خرج اخوه من وراء الشجرة الى الشارع في ضوء القمر. بدأ بعبور الشارع. وبدأ ابوك يركض هابطا التل دون ان يعرف السبب. كانت السيارة مليئة برجال بيض. كلهم سكارى، وحين شاهدوا عمك بدأوا بالصراخ والصياح واتجهوا بسيارتهم نحوه. كانوا يتسلون ارادوا بث الرعب في نفسه لا غير. كما اعتادوا في بعض الاحيان كما تعرف. لكنهم سكارى. واظن الفتى كان مخمورا بدوره، وخائفا، ففقد رباطة جأشه. اللحظة التي قفز فيها جاءت متأخرة . قال ابوك انه سمع صرخة اخيه حين سحقته السيارة، وسمع صوت تكسر خشب القيثارة، وسمع تقطع اوتارها، وسمع صياح الرجال البيض وظلت السيارة سائرة في طريقها ولم تتوقف حتى اليوم. ولدى وصول ابيك من اعلى التل لم يكن اخوه

غير كتلة من الدم والاشلاء؟.

التمعت الدموع على وجه امي، لم يكن هناك ما يمكنني قوله.

«لم يتـطرق لذكر الموضوع ابدا» قالت «لاني لم اسمح له بذكره امامكم. كان ابوك اقرب للجنون في تلك الليلة والليالي التالية للحادث. قال انه لم ير في حياته ظلمة أشد من ذاك الطريق بعد ذهاب السيارة باضوائها مبتعدة عنه. لم يكن يوجد شيء او شخص في ذلك الطريق، الا اباك واخاه والقيثارة المهشمة. اه، نعم، لم يعد ابوك كما كان من قبل. وحتى يوم مماته ظل يشك في كل وجه ابيض يراه على أنه هو الذي قتل اخاه».

توقفت وتناولت منديلها، جففت عينيها ونظرت الي.

«لم احك لك ذلك» قالت لي «لابث الرعب فيك، او المرارة او لدفعك لكراهية اى كان. انما احكي لان لك اخا. ولان العالم لم يتغير».

اظن اني لم ارغب بالايمان بذلك. واظنها قرأت الفكرة في قسمات وجهي. ادارت وجهها عني، نحو النافذة من جديد بحثا في الطرقات.

«لكني احمد خالقي» قالت اخيرا «انه اخذ اباك قبل ان يأخذني. لا اقـول ذلك لانثـر الزهـور على نفسي، انما لاقول ان ما يساعدني في التحمل هو معرفتي اني اعنت اباك لاجتياز هذا العالم. لقد سلك ابوك دوما سلوك الرجل الاصلب والاقوى على هذه الارض. ونظر الجميع اليه على انه كذلك. لكني كنت الى جواره ـ لكي اشاهد دموعه!»

سفحت الدموع مجددا، ومع هذا لم استطع التحرك. قلت «يا الهي، يا الهي، لم اعرف ان الامور كانت على هذا النحو يا ماما».

«يا حبيبي» قالت «هناك الكثير مما لا تعرف. لكنك سوف تكتشف كل شيء» نهضت من جوار النافذة وجاءت الي «عليك بالمحافظة على أخيك» قالت لي «لا تدعه يسقط، ومهما بدا ظاهر ما يحدث له، ومهما ساءت الامور بينكما. سوف تسيء له مرات. ولكن لا تنسَ ما قلته لك أتسمعني؟».

«لن انسىٰ» قلت «لا تقلقي لن انسىٰ. ولن ادع شيئاً يمس سوني».

ابتسمت امي كما لو ان شيئاً ما في وجهي يسليها. ثم قالت «قد لا تكون قادرا على منع ما يحدث. ولكن عليك ان تجعله يعرف انك الى جانبه».

بعد يومين تزوجت ثم رحلت. كان في ذهني مئات الاشياء فنسيت وعدي لامي حتى عدت في اجازة خاصة لحضور جنازتها.

بعد الجنازة بقيت وسوني وحدنا في المطبخ الخالي، حاولت معرفة اي شيء عنه.

«ما الذي تريد فعله؟» سألته.

«سأصير موسيقياً».

اذ تجول اثناء غيابي، من الرقص على الموسيقى الالية الى العزف على الطبول كما هو شائع بين الشباب.

«تعني تريد ان تصبح طبالاً؟» احسست على نحو ما ان لا ضير في ان يصير الاخرون طبالين، ولكن ليس اخي سوني.

«لا اظن» قال وهو ينظر إلي بجدية تامة «اني سأكون طبالاً ماهراً.

لكني اعتقد اني قادر على العزف على البيانو».

تجهمت . لم العب من قبـل دور الاخ الاكبـر بهذا الحد من الجـدية، كما لم اطلب من سوني شيئاً. احسست اني أمام شيء لا اعرفه في الواقع كما لا اعرف كيفية التصرف حياله، ولا افهمه. لهذا ازداد عبوسي وسألته «اي صنف من الموسيقيين تريد ان تكون؟».

ابتسم «كم صنفاً تظنهم؟».

«كن جادا» قلت .

ضحك وهو يرمي برأسه الى الوراء، ثم نظر الي وقال «انني جاد فعلا».

«حسن اذاً، بحق المسيح، توقف عن المزاح واعطني الرد على سؤالي الجـاد. اعني، اتـريد ان تكون عازف بيانو للكونسرتو، او الموسيقى الكلاسيكية وما شابه ـ ام ماذا؟» قبل ان انهي كلمتي بفترة طويلة عاد الى الضحك من جديد، فصرخت «بحق المسيح سوني!».

عاد الى رشده بصعوبة «اسف. ولكنك تبدو خائفاً!».

«حسن، قد تظن الامر مضحكاً الان يا طفلي، ولكنه لن يكون كذلك حين تضطر لكسب العيش، ولابد لي ان اقولها لك».

كنت شديد الغضب لمعرفتي انه يضحك مني دون ان اعرف السبب.

«لا»، قال جاداً ربما خشية ان يؤذي مشاعري «لا اريد ان اكون عازف بيانو كلاسيكي . ليس هذا ما يثير اهتمامي. اعني »ـ توقف وهو يحدق اليه كما لو ان نظرة عينيه قد تساعدني على الفهم، ثم هز يده

بعجز . كما لو ان يده قد تساعد «اعني ، لابد لي من تعلم الكثير، يجب ان ادرس كل شيء، انما ، اعني اني اريد العزف مع موسيقى الجاز توقف قليلا «اريد ان اعزف الجاز».

حسن لم تبد الكلمة بمثل هذا الثقل من قبل، او الواقعية كما بدت في فم سوني ذلك اليوم. نظرت اليه وحسب، وربما عبست عبوساً حقيقيا هذه المرة. الامر ببساطة اني لم اقدر على ان ارى سببا يجعله يقضي وقته متسكعا في المنتديات الليلية لكي يهرج على مسارحها، في حين يتدافع الناس في حلبة الرقص. بدا على نحو ما، اني لم افكر بامره من قبل، لم اضطر لذلك، انما اظن اني نظرت دوما الى موسيقيين الجاز على انهم من الطبقة التي تسمى «أناس الاوقات الطيبة».

«هل انت جاد؟».

«بحق الجحيم، نعم اني جاد».

بدا عاجزاً اكثر من ذي قبل، ومنزعجا وقد جرحت مشاعره.

اقترحت. لمساعدته «تعني ـ مثل لويس ارمسترونغ؟»

انغلقت اسارير وجهه كما لو اني ضربته «لا . اني لا اتحدث عن الازمنة القديمة، تفاهة ارض الجنوب».

«حسن ، انظر يا سوني، اسف، لا تغضب. اني لا افهم الامر بتاتا، ذلك هو كل ما في الامر. اذكر اسما ـ اسم اي من موسيقيين الجاز الذين يعجبونك».

«بيرد».

«من؟».

«بيرد ! شارلي باركر! ألا يعلمونكم شيئا في الجيش؟»

اشعلت سيجارة . كنت مندهشا ثم سررت اذ اكتشفت اني ارتجف.

«كنت منقطعا» قلت «عليك بالصبر معي. والان. من باركر هذا؟».

«انــه لا يزيد عن كونه اعظم موسيقي جاز على قيد الحياة» قال سوني بنبـرة جادة ويـداه في جيبه مديراً ظهره لي.. «ربما الاعظم» اضاف بمرارة «وربما كان هذا هو سبب عدم سماعك باسمه أبداً».

«ممتاز»قلت له «انا جاهل. اسف. ساذهب لشراء اسطواناته كلها حالا . جيد؟»

قال سوني «لن يغير هذا من الامر شيئاً بالنسبة اليّ. لا يهمني ما تسمعه . فلا تثقل علي بأفضالك»

بدأت ادرك اني لم اشاهده بمثل هذا الاضطراب من قبل. في قسم اخر من عقلي بدأت افكر انها واحدة من المراحل التي يمر بها الفتيان وأن علي ان لا اعلق اهمية على الامر بهذا الأصرار. مع ذلك، لم اجد ضيراً في سؤاله.

«ألا يستغرق ذلك وقتاً طويلاً ؟ أيمكنك كسب عيشك منه؟».

استدار إلي واتكأ جلس على طاولة المطبخ «كل شيء يستغرق وقتاً» قال لي «و ـ حسن، نعم، من المؤكد اني استطيع كسب معيشتي منه. ولكن ما يبـدو اني عاجز عن تحقيقه هو ان اجعلك تفهم انه الشيء الوحيد الذي اريد القيام به».

«حسن يا سوني» قلت له بلطف «اغلب الناس لا يستطيعون فعل ما يريدونه تماماً ـ».

«لا،لا اعرف ذلك» قال سوني مما ادهشني «انا اعتقد انه يجب على المرء ان يفعل ما يريد، والا ما هو مبرر حياته؟».

«انك توشك ان تصير رجلا» قلت له يائساً «وآن الاوان ان تبدأ التفكير في مستقبلك».

«انا افكر في مستقبلي» قال سوني بشراسه «افكر فيه طول الوقت».

يئست. وقررت ان لم يغير رأيه فان بامكاننا معاودة الحديث مجددا فيما بعد. «في هذه الاثناء» قلت له «عليك الانتهاء من الدراسة» كنا قد قررنا ان ينتقل ليعيش عند ايزابيل واهلها. كنت اعرف انه ليس حلا مثاليا لاني اعرف تشدد عائلة ايزابيل وانهم لم يتحمسوا لزواجي من ايزابيل. لكني لم أعرف حلا آخر غير ذلك «وعلينا ان نرتب سكنك مع عائلة ايزابيل.»

ساد صمت طويل. انتقل من طاولة المطبخ الى النافذة. «هذه فكرة فظيعة وانت تعرف ذلك».

«الديك فكرة افضل؟».

ظل يسير جيئة وذهاباً في المطبخ مدة دقيقة. كان يقاربني طولاً. وبدأ يحلق ذقنه. احسست فجأة اني لا اعرفه.

توقف قرب طاولة المطبخ والتقط علبة سجائري.

نظر اليّ ببعض السخرية، وبتحدٍ مسل، وضع سيجارة بين شفتيه «الديك مانع؟».

«هل بدأت بالتدخين؟».

اشعل سيجارته وهز رأسه، وهو يرمقني خلال الدخان «اردت

فقط ان امتحن نفسي لارى ان كانت لدي الشجاعة الكافية للتدخين بحضورك». ابتسم ونفخ سحابة كبيرة من الدخان نحو السقف «كان سهلاً» حدق في وجهي «هيا، اراهن انك كنت تدخن وانت بعمري . قل الحقيقة.»

لم اقل شيئا، لكن الحقيقة ارتسمت على محياي، فضحك. وفي ضحكته توتر شديد «من المؤكد. كما واراهن ان ليس ذلك كل ما فعلته».

اشعرني ببعض الخوف «توقف عن الهراء» قلت «لقد قررنا ان تذهب لتعيش عند عائلة ايزابيل. والان ماذا دهاك فجأة؟».

«انت قررته» أشار اليّ «انا لم اقرر شيئاً» وقف امامي متكئاً على الفرن وقد عقد ذراعيه «انظر يا اخي. انا لا اريد البقاء في هارلم. لا اريد ذلك بالفعل» كان جاداً. حدق الي، ثم الى نافذة المطبخ. شيء ما في عينيه لم اره من قبل، شيء من التفكير العميق والقلق الخاص به. فرك عضلة ذراعه «آن اوان خروجي من هنا».

«والى اين تريد الذهاب يا سوني؟»

«اريد الالتحاق بالجيش. او البحرية. لا يهمني . ان قلت لهم اني في السن المناسب سوف يصدقونني».

انفجر غضبي جنوناً. بسبب شدة رعبي «لابد أنك مجنون. ايها الاحمق اللعين، لأي سبب تريد الالتحاق بالجيش؟».

«قلت لك. اريد مغادرة هارلم».

«سوني. انك لم تنه المدرسة بعد. فان اردت حقاً ان تصير موسيقياً

فكيف بامكانك الدراسة في الجيش؟».

نظر الي نظرة من وقع في الفخ، نظرة استغاثة هناك طرق عديدة. ربما امكنني الاتفاق معهم. على اية حال سأحمل شهادة الجندية حين اغادرهم».

«ان خرجت!» حدق احدنا الى الاخر «سوني ارجوك، كن عاقلا. اعرف ان هذا الترتيب هو ابعد ما يكون عن الكمال. ولكن علينا التصرف بأفضل ما نستطيع».

«المدرسة لا تعلمني شيئا» قال «حتى إن ذهبت اليها» استدار مبتعدا عني، فتح النافذة ورمى عقب سيجارته في الزقاق الضيق. راقبت ظهره «في الاقل، انا لا اتعلم ما تريد مني تعلمه» صفق النافذة بعنف حتى تصورت زجاجها سيتهشم استدار نحوي «وانا متقزز من نتانة علب الزبالة هناك».

«سوني» قلت له «أعرف ما تشعر به. ولكن ان لم تنه الدراسة الان، فسوف تندم فيما بعد» امسكت بكتفيه «ولم تعد امامك الا سنة واحدة. ليس الامر بهذا السوء. سأعود، واقسم لك اني سأساعدك في كل ما تريد فعله. ليس عليك الا ان تحاول الاستمرار حتى اعود. اتفعل ذلك رجاء؟ لاجل خاطري؟».

لم يجبني كما لم ينظر الي.

«سوني. اتسمعني؟»

انسحب «اسمعك. لكنك لا تسمع كلمة مما اقول»

لم اصر ردا على ذلك. نظر عبر النافذة ثم الي «موافق» قال لي وتنهد

«سأحاول».

ثم قلت في محاولة لبعث السرور في نفسه بعض الشيء «لديهم بيانو في بيت ايزابيل. يمكنك التدرب عليه».

في الواقع بعث قولي هذا بعض السرور في نفسه «هذا صحيح» قال لنفسه «نسيت ذلك» ارتاح وجهه برهة. لكن التوجس والقلق لا يزالان يلعبان في رأسه كما تتلاعب الظلال في وجه من يحدق الى السنة اللهب.

لكني لم اتصور اني سأسمع قصة البيانو الى ما لا نهاية. في البداية كتبت لي ايزابيل عن ارتياحهم لجدية سوني في التدرب على الموسيقى، وكيف انه ما ان يرجع من المدرسة او اي مكان اخر، حتى يذهب الى البيانو ويبقى هناك حتى يحين موعد العشاء. ويعود اليه بعد العشاء والى حين ذهابهم جميعا للنوم. يلازم البيانو طوال يومي السبت والاحد . ثم اشترى حاكيا وصار يستمع اليه. يعيد الاسطوانة نفسها مرة بعد اخرى طوال اليوم احيانا وفي بعض الاحيان يصاحبها بالعزف الارتجالي على البيانو. او ان يأخذ حركة واحدة من المعزوفة، او نوتة واحدة، او نقلة واحدة ثم يعزفها على البيانو. ومرة اخرى من الاسطوانة. ثم البيانو.

حسن، لا اعرف في الواقع كيف امكنهم تحمل ذلك. اعترفت ايزابيل اخيراً ان الامر لا يشبه معايشة انسان على الاطلاق، بل معايشة صوت ما لا غير، ولم يعن الصوت اي شيء بالنسبة اليها، أو الى أي منهم ـ من الطبيعي بدأوا ينزعجون من وجوده في بيتهم. صار

سوني اشبه بالاله او الوحش بينهم. كان يرتاد اجواءاً تختلف كلياً عن اجوائهم، كانوا يطعمونه فيأكل، يغتسل يدخل بابهم ويخرج منها. من المؤكد انه لم يكن مؤذيا او مزعجا او جلفا، فليس في سوني اي من هذه الصفات، ولكن الامر كان اشبه بانسان تغلفه غيمة او نار، ولديه رؤية خاصة به، وليس من وسيلة للتواصل معه.

في الوقت نفسه، لم يكن قد وصل الى مرحلة الرجولة بعد، اذ ما زال طفلا، وعليهم مراقبته بطرق شتى. لم يكن بمقدورهم طرده من المؤكد كما لم يسعهم اثارة مشكلة بشأن البيانو. لانهم احسوا على نحو غامض، كما احسست على مبعدة الوف الاميال، ان سوني يعزف البيانو على انه قضية حياته.

لكنه لم يكن يذهب الى المدرسة. وفي احد الايام جاءت رسالة من إدارة المدرسة وتسلمتها ام ايزابيل -ويبدو انهم بعثوا رسائل عدة لكن سوني مزقها جميعاً. في ذلك اليوم، حين عاد سوني، ارته ام ايزابيل الرسالة وسألته عن اماكن قضاء وقته. واخيرا افلحت في معرفة انه يقضي وقته في قرية غرينتش صحبة الموسيقيين وغيرهم، في شقة فتاة بيضاء. آرعها الأمر وبدآت بالصياح عليه وقول كل ما جال في ذهنها تلك اللحظة - عن تضحياتهم لايوائه وعن قلة تقديره لما يقدمونه له.

لم يعزف سوني البيانو ذلك اليوم. في المساء، هدآت ام ايزابيل، ولكن عليه مواجهة الرجل العجوز، وايزابيل نفسها. تقول ايزابيل انها بذلت جهدها لتكون هادئة لكنها انهارت وبدآت بالبكاء. قالت انها لم تفعل الا ان راقبت وجه سوني. اذ بامكانها من خلال مراقبته، معرفة

ما يعتمل في اعماقه. فما جال في أعماقه هو انهم اخترقوا غيمته فوصلوا اليه. وحتى لو كانت اصابعهم ارق الف مرة من الاصابع البشرية، الا انـه لم يسعـه الا ان يحس بهـا وهي تعريه وتبصق على عريه. اذ استطاع ان يدرك ان وجوده بينهم والموسيقى التي كانت بالنسبة اليه مسألة حياة او موت، انما هي عذابهم ، وانهم تحملوا هذا العذاب لا لأجله هو، وانما لاجلي. ولم يحتمل سوني ذلك. ولم يستطع تحمله حتى اليوم. اذ انه ليس قادراً على تحمل مثل هذا العبء، ولا اعرف احداً قادراً عليه.

لابد ان الصمت الذي ران في الايام القليلة اللاحقة كان اشد وقعا من صوت الموسيقى التي عزفت منذ فجر الازمنة. في صباح احد الايام، وقبل ذهاب ايزابيل الى عملها ذهبت الى غرفته لأخذ شيء ما، فلاحظت فجأة ان اسطواناته كلها ليست موجودة. فأدركت على نحو مؤكد انه كان قد غادرهم. ذهب الى حيث. تستطيع البحرية ان تأخذه بعيدا واخيرا أرسل لي بطاقة من مكان ما في اليونان فكانت المرة الاولى التي اعرف فيها ان سوني لا يزال على قيد الحياة. ولم اره حتى عدنا الى نيويورك بعد انتهاء الحرب بفترة طويلة..

لقد تحول حقاً الى رجل، لكني لم اشأ ملاحظة ذلك. كان يمر بيتنا بين فترة واخرى، لكنا كنا نتشاجر في كل لقاء، لم احب طريقته في التصرف، كان أشبه بالحالم او الساهي كما لم احب اصدقاءه، وبدت موسيقاه اقرب الى ان تكون تبريراً للحياة التي يعيشها في انحرافها وضياعها.

تشاجرنا مشاجرة عنيفة رهيبة، ولم اره بعد ذلك شهورا. لكني تدريجيا بدأت ازوره حيث يعيش في غرفة مفروشة في قرية غرينتش وحاولت اصلاح ذات البين بيننا. ولكني فشلت بسبب وجود عدد كبير من الناس في الغرفة، وكان سوني يتمدد في فراشه رافضا النزول معي انه يعامل هؤلاء الناس وكأنهم اهله دوني. لهذا غضبت، فغضب بدوره، ثم قلت له ان الامر لا يعنيني سواء أعاش أم مات، بسبب طريقة معيشته. نهض وطلب مني ان لا اقلق بشأنه بعد الان، ومن الافضل ان اعده ميتا لا علاقة لي به بعد ذلك دفعني نحو الباب، والناس من حولنا ينظرون كما لو ان شيئا لم يحدث وصفق الباب ورائي. وقفت في الصالة محدقا الي الباب. سمعت شخصا يضحك في الغرفة ثم يصفر لحنا كي يمنع نفسه من البكاء، فبدأت أصفر بدوري ثم انهمرت دموعي. بدأت بهبوط الدرج واللحن يخرج من بين اسناني وكلمات الاغنية ترن في اذني «سوف تحتاج الي، يا طفلي، في احد الايام الباردة الممطرة».

قرأت عن مشكلة سوني في الربيع، وماتت صغيرتي غريس في الخريف. كانت فتاة صغيرة رائعة. لكنها لم تعش الا ما يزيد قليلا عن سنتين. ماتت بشلل الاطفال بعد ان عانت كثيرا. اصابتها الحمى مدة يومين ولم نكن قد عرفنا ما يشبه هذه الحمى فابقيناها في فراشها اردنا استشارة الطبيب في البداية، لكن هبوط الحرارة جعلتها تبدو على احسن حال. فتصورنا انها مصابة بالبرد لا غير. ثم في احد الايام كانت تلعب وايزابيل تهيء الغداء في المطبخ لقرب عودة الولدين من

مدرستهما، سمعت سقطة غريس من غرفة الجلوس. حين يكون للمرء اطفال كثيرون فهو يهرع لسقوط احدهم، الا بعد سماع الصراخ او ما شابه. وهذه المرة كانت غريس هادئة. ولكن ايزابيل قالت انها حين سمعت صوت السقطة ثم الصمت الذي تلاها اهتز شيء ما في اعماقها ودفعها الى الخوف. ركضت الى غرفة الجلوس فرأت الصغيرة غريس على الارض، جسدها الصغير ملتويا. سبب عدم صراخها هو عدم قدرتها على التنفس. وحين صرخت خرج منها اسوأ صوت سمعته ايزابيل طوال حياتها وما زالت تسمعه حتى الان في احلامها. اذ توقظني ايزابيل احيانا بأنينها المكتوم المختنق. وعلي الاسراع بأيقاظها واحتضانها قريبا مني فتظل ايزابيل تبكي جرحا لا يندمل.

اظن انيَ كتبت الى سوني في اليوم نفسه الذي دفنّا الصغيرة غريس. كنت في غرفة الجلوس المظلمة وحدي وبغتة خطر سوني في ذهني. فتجسدت مشكلتي.

بعد ظهيرة احد ايام الاحد، اثناء بقاء سوني للعيش معنا في بيتنا منذ حوالي اسبوعين. وجدت نفسي اتمشى في غرفة الجلوس دون هدف محدد، اشرب من علبة (بيرة) وانا استجمع شجاعتي لتفتيش غرفة سوني. كان خارج البيت، وقد اعتاد ان يكون في الخارج حين اكون في البيت، وأخذت ايزابيل الاطفال الى بيت جدهم. فجأة وجدت نفسي واقفا امام نافذة غرفة الجلوس ارقب الشارع السابع. جعلتني فكرة تفتيش غرفة سوني اقف بلا حراك. لم اجرؤ على الاعتراف امام نفسي بما كنت اريد البحث عنه. ولم اعرف ما سأفعله ان وجدته. او ان لم

اجده.

على الرصيف المقابل لي قرب مدخل مطعم للمستويات كان مجموعة من الناس يحتفلون بشيء ما. الطباخ يرتدي مئزرا ابيض قذرا، شعره المجعد أميل الى الاحمرار المعدني في ضوء الشمس الشاحبة، والسيجارة بين شفتيه، يقف قرب الباب وهو يرقب المحتفلين. توقف المارة صغارا وكبارا، ووقف بعض الرجال الاكبر سنا مع امرأتين تبدو عليهما القوة ليرقبوا كل شيء يحدث في الشارع وكأنه ملك لهم، او كأنه يمتلكهم. حسن، وقفوا يرقبون. كانت تؤدي مراسيم الاحتفال ثلاث فتيات اخوات يرتدين السواد ومعهن اخوهن. لا يصاحبهم الا اصواتهم واناجيلهم ودفوفهم. الاخ يرتل وتقف اختان من اخواته متقاربتين كما لو انهما تقولان (آمين) والاخت الثالثة تمد يدها بالدف الى الناس، رمى لها بعضهم قطعا صغيرة من النقود. ثم انتهى ترتيل الاخ، فوضعت الاخت القطع النقدية التي جمعتها في راحة يدها ثم في جيب ثوبها الاسود الطويل. بعد ذلك رفعت يديها وفيهما الدف في الهواء ثم بأحدى يديها وبدأت بالغناء. وصاحبتها اختاها واخوها.

غريب، ان اراقب هذا المشهد الذي يجري في الشارع، رغم اني رأيته طوال حياتي، كما فعل طبيعي كل من كان هناك. لكن الجميع توقفوا وراقبوا واستمعوا، ووقفت بهدوء قرب النافذة استمع الى غنائهم (انها السفينة العتيقة تأخذنا الى القدس) وظلت الاخت ذات الدف تعزف نغمة ثابتة (وهي التي انقذت عدة الوف من البشر). لم يكن احد من الواقفين يستمع الى هذه الاغنية اول مرة، ولم تنقذ السفينة العتيقة

أيـا منهم. كمـا لم يشـاهد اي منهم احدا كان قد انقذته السفينة المبـاركـة. ولم يؤمن اي منهم بتـدين هؤلاء الاخوات واخوهن، فهم يعرفون عنهم اكثر مما يجب، يعرفون اين يعيشون وكيف. فالمرأة ذات الدف التي تسيـطر بصوتها على الجو، والتي اثارت البهجة قسمات وجههـا لا تختلف بشيء عن المـرأة التي تقف لمشاهدتها والسيجارة معلقة بين شفتيها الغليظتين المصبوغتين وشعرها المنفوش وكأنه عش البلبـل، ووجهها المليء بالندوب التي سببتها الضربات العديدة التي تلقتهـا والسواد يحيط بعينيها المتورمتين . ربما عرفت كلتاهما هذه الحقيقـة، وربما كان هذا هو السبب الذي تنادي احداهما الاخرى بلقب الاخت كلما تحادثتا، وهما قلما تتحادثان. اثناء استمرار الغناء تغيرت قسمات وجوه المشاهدين، وتركز نظرهم في شيء ما في الداخل: اذ هدأت الموسيقى بعض الشيء من السم الذي يعشعش في نفوسهم وبدا الزمن وكأنه يتساقط تقريبا عن وجوههم المتجهمة، المحاربة والبالية، كما لو انهم يهربون عائدين الى حالتهم الاولى وهم يحلمون بحالتهم الاخـيرة. هز الطبـاخ رأسـه وابتسم، القى سيجارته واختفى داخل مطعمـه. بحث احـد الرجال عن قطعة نقود صغيرة في جيوبه ووقف والنقود في يده، نافذ الصبر كما لو انه تذكر فجأة موعداً عاجلا ينتظره في نهاية الشارع. بدا الغضب عليه. ثم رأيت سوني يقف وراء الزحام. يحمل دفترا كبيرا مسطحا له غطاء اخضر مما اضفى عليه مظهر تلميذ صغير، وانا اراه من حيث اقف. القت الشمس البرونزية لونها عليه فزادت من برونزية لون جلده، كان يبتسم قليلا وهو يقف بكل هدوء.

ثم توقف الغناء وعاد الدف ليكون صحنا لجمع النقود. القى الرجل الغاضب قطعة نقوده واختفى، كما فعلت المرأتان والقى سوني شيئا في الصحن وهـو يحدق في وجه المرأة مبتسماً. بدأ بعبور الشارع نحو البيت. له مشية بطيئة منحرفة كما يمشي فتيان هارلم لكنه اضاف الى مشيتهم نصف التون الذي يميزه. في الواقع لم انتبه لهذا من قبل.

بقيت قرب النافذة وانا احس بالارتياح والخشية في وقت واحد. حين اختفى سوني من دائـرة نظري بدأوا بالغنـاء مجددا. كانوا لا يزالون يغنون حين سمعت المفتاح يدور في قفل الباب.

«اهلا» قال..

«اهلا بك» اتريد شيئا من الجعة؟»

«لا، حسن، ربما قليلا منها جاء» الى النافذة ووقف بجانبي وهو ينظر الى الخارج: « ما ادفأ صوتها».

كانت اغنيتهم (ليتني اسمع صلوات امي مرة اخرى!).

«نعم» قلت «وهي بالتأكيد ماهرة في العزف على الدف»

«ولكن ما ابشـع اغنيتها» قال هذا، ثم ضحك. القى بدفتره على الاريكة واختفى في المطبخ «أين ايزابيل والاطفال؟»».

«اظنهم ذهبوا لزيارة جديهم. أجائع انت؟»».

«لا» عاد الى غرفة الجلوس حاملاً علبة بيرة.

«أتريد المجيء معي الى مكان ما الليلة؟»».

احسست دون ان اعـرف السبب اني لن استـطيـع الرفض «بلاشك، اين؟»».

جلس على الاريكة وسحب دفتره وبدأ يقلب اوراقه «سأظهر مع بعض الشباب في احد الاماكن في القرية»

«تعني انك ستعزف الليلة؟».

«نعم» رشف من علبة البيرة وتحرك عائداً الى النافذة. نظر اليّ نظرة جانبية «ان استطعت تحمل الامر»

«سأحاول».

ابتسم مع نفسه وظللنا نرقب ما يجري امامنا. احنى الاخ والاخوات الثلاث رؤوسهم وبدأوا ينشدون (كان الله معكم حتى نلتقي ثانية) الوجوه حولهم شديدة الهدوء. ثم انتهت الانشودة. اختفى الحشد الصغير. راقبنا النساء الثلاث والرجل الوحيد يسيرون الهوينا في الشارع.

«حين غنت من قبل» قال سوني فجأة «ذكرني صوتها لحظة بما تحس به أحيانا - حين يسري المخدر في عروقك انه يجعلك تحس بالدفء والبرد في آن واحد. والنأي، و - و من المؤكد» رشف من البيرة وهو يتعمد تحاشي النظر اليّ. راقبت وجهه «انه يجعلك تحس - بالسيطرة. تحتاج في بعض الاحيان الى مثل هذا الاحساس».

«اتحتاجه؟» جلست بطيئاً على الكرسي.

«احياناً» ذهب الى الاريكة ورفع دفتره مجدداً «بعض الناس يحتاجونه».

«ألكي تعزف؟» كان صوتي شديد البشاعة مليئا بالكراهية والغضب.

«حسن ـ» نظر الي بعينين عظيمتي الاضطراب وكأنه يتمنى ان تخبرني عيناه عما يستحيل عليه قوله «انهم يتصورون ذلك. وان تصوروا ذلك ـ !».

«وما الذي تتصوره انت؟» سألته.

جلس على الاريكة ووضع علبة البيرة على الارض «لا اعرف» قال، ولم اكن متأكدا ان كان قوله هو الرد على سؤالي ام متابعة لافكاره الخاصة. لم افهم من تعبير وجهه شيئا «ليس الامر في العزف وحسب، بل القدرة عليه. على اية حال» عبس ثم ابتسم «لكيلا يتهشم الانسان».

«ولكن اصدقاءك هؤلاء» قلت له «يبدو أنهم يهشمون انفسهم بسرعة شيطانية».

«ربما» عبث بدفتره. شيء ما دفعني ان لا اطيل الجدال، ولكن سوني يبذل جهده ليستمر الحوار، وعلي الاستماع «ولكن من الطبيعي انت لا تعرف الا اولئك الذين تهشموا. بعضهم لا يتهشم ـ او في الاقل لم يتهشم بعد، وذلك هو كل ما يستطيع ايّ منا قوله تقريبا». توقف برهة «وهناك اولئك الذين يعيشون في الواقع، في الجحيم ويعرفون ذلك اذ يرونه وهو يحدث لهم دون ان تمنعهم معرفتهم من الاستمرار في الطريق لا ادري» تنهد والقى بدفتره وشبك ذراعيه «بعض الفتيان، تستطيع ان تلاحظ من طريقتهم في العزف انهم مخدرون طوال الوقت. يمكنك رؤية الأمر بوضوح. انه يجعلهم واقعيين. ولكن من الطبيعي..» التقط علبه البيرة من الارض ورشف منها ثم اعادها «انهم يريدون الخلاص منه ايضا، عليك ان ترى ذلك ايضا. حتى ان

بعضهم يقول انه لا يريد ـ بعضهم وليس كلهم»

«وماذا عنك» ؟ سألته مرغما «ماذا عنك؟ اتريد ذلك؟».

نهض وسار الى النافذة وظل صامتاً مدة طويلة. ثم تنهد وقال «انا. حين كنت في الاسفل، في طريقي الى هنا استمع الى هذه المرأة وهي تغني، صدمني فجأة عمق المعاناة التي لابد انها مرت بها ـ لكي تغني على هذا النحو. من المقزز ان يفكر المرء بضرورة معاناته الى هذه الدرجة».

قلت «ولكن ليست هناك طريقة تجعلنا لا نعاني ـ اليس كذلك يا سوني؟».

«لا اعتقد» قال، وابتسم «لكن ذلك لم يمنع احدا من قبل من المحاولة» نظر الي «اليس كذلك؟» ادركت من نظرته الساخرة، ان هناك حاجزا يقف بيننا الى الابد، حاجز لا تطاله سلطة الزمن او الغفران، سببه بقائي صامتا ـ مدة طويلة! حين احتاج صوتا بشريا ليعينه. عاد الى النافذة «لا، ليس هناك طريق يخلو من المعاناة. لكن عليك ان تجرب طرقا شتى لكيلا تغرق لكي، تظل اعلى منها، وتجعلها تبدو ـ حسن. مثلك. ما فعلته انت، وصرت تعاني بسببه الان. أتعرف؟» ولم اقل شيئا.

«حسن أتعرف» قال بنفاد صبر «لماذا يعاني الناس؟ ربما كان من الافضل القيام بشيء لاضفاء سبب محدد على معاناتهم، اي سبب».

«لكننا اتفقنا» قلت له «ان ليس من طريق يخلو من المعاناة. اليس من الافضل اذا ان ـ نتحمل؟».

«لكن ببساطة لا احد يحتمل» «صرخ سوني «ذلك هو ما أحاول قوله

لك! الكل يحاول الامتناع. انك تتوقف عند الطريقة التي يحاول بها بعض الناس ـ انها ليست طريقك!».

بدأ شعر لحيتي يؤلمني واحسست بالبلل في وجهي. «هذا غير صحيح» قلت له «هذا غير صحيح. لا يهمني ما يفعله الناس، ولا تهمني معاناتهم. كل ما يهمني هو كيفية معاناتك انت». حدق الى وجهي «ارجوك صدقني» لا اريد ان اراك ميتا ـ وانت تحاول ان لا تعاني».

«لن اموت وانا احاول ان لا اعاني» قال على نحو سطحي «في الاقل لن اموت اسرع من بقية الناس».

«ولكن، لا حاجة هناك» قلت محاولا الضحك «اليس كذلك؟ لا حاجة لقتل نفسك».

اردت قول المزيد، لكني لم استطع. اردت ان احدثه عن قوة الارادة وكيف يمكن ان تكون الحياة ـ جميلة. اردت ان اقول ان كل شيء ينبع من الداخل، ولكن هل ذلك صحيح؟ او الاحرى اليست تلك هي المشكلة بالضبط؟ واردت ان اعده أني لن ادعه يسقط مجدداً. ولكن كل ذلك سيبدو كلمات فارغة واكاذيب.

لهذا قطعت عهدا على نفسي وصليت لاحافظ على هذا العهد.

«الأمر رهيب احيانا في الاعماق» قال «وتلك هي المشكلة. انت تسير في هذه الشوارع السود المرعبة والباردة، وليس من مخلوق حي لتحادثه، لا شيء يهتز وليس من طريقة لتخرج العاصفة من اعماقك. لا يمكنك التحدث او المغازلة وهو معك، وحين تحاول اخيرا العزف في

محـاولة لاخـراجـه تدرك ان لا احـد يستمع اليك. لهذا يجب عليك الاستماع. عليك ان تجد طريقة للاستماع».

ثم سار بعيدا عن النافذة وجلس على الاريكة من جديد، كما لو ان الريح قد خرجت منه «احيانا تفعل اي شيء لتعزف، حتى ان تقتل امك» ضحك ونظر الي «او اخاك» عاد الى عبوسه «او نفسك» ثم «لاتقلق . اني بخـير الان واظن اني ساظل بخير. لكني لا استطيع نسيان - المكان الذي كنت فيه. لا اعني بذلك المكان وحسب، انما حيث كنت انا. وما كنته.»

«ما الذي كنته يا سوني» سألت.

«ابتسم - جلس جانبيـا على الاريكـة متكئـاً بمـرفقـه على ظهره واصابعه تعبث بفمه وذقنه دون ان ينظر إلي «كنت شيئا لا اعرفه، لم اعرف اني يمكن ان اكونه. ولم اعرف اي امريء يمكن ان يكونه» توقف وهـو ينـظر الى اعماقه، تبدو عليه الطفولة البائسة، والشيخوخة «لا اتحدث عن الامر الان بسبب شعوري بالذنب او ما شابه - ربما كان الاحسـاس بالذنب افضـل مما احسه، لا ادري . على اية حال، لا يمكنني في الواقـع التحـدث عنه. لا معك ولا مع اي كان». استدار ليواجهني «احيانا، وفي الواقع، حين اكون خارج هذا العالم احس اني في داخله، اني معه. واقعيا، واستطيع العزف، وقد لا اضطر الى العزف واقعاً، انما يخرج العزف مني، لانه موجود في اعماقي. لا اعرف كيف اعـزف، واذ أفكر بالامر الان، اعرف اني فعلت اشياء رهيبة في تلك الايام، واحيانا للآخرين. او اني لم فعل شيئا لهم الاحرى - انما هم

لم يكونوا حقيقيين».التقط علبة البيرة، كانت فارغة دحرجها«وفي احيان اخرى ـ كنت احتاج الى جرعة، احتجت الى مكان لأنحني، احتجت الى فضاء لأستمع ـ ولم استطع العثور عليه، و ـ أجن، فافعل اشياء رهيبة لنفسي، كنت رهيباً مع نفسي» بدأ يضغط علبة البيرة بين يديه راقبت المعدن ينهار. التمع، وهو يلعب به، وكأنه السكين خشيت ان يجرح نفسه لكني لم اقل شيئا. «آوه، حسن. لن استطيع ان اقول لك.-كنت وحدي في قعر شيء ما، كريها يغمرني العرق، ابكي ارتجف، واحس برائحتـه.أتدري؟ انها رائحتي الكريهة، تصورت اني سأموت ما لم اهرب منه. ومع ذلك كنت اعرف ان كل ما افعله يزيد من انغماري به. ولم اعرف» توقف وقد تحولت علبة البيرة بين يديه الى صفيحة مسطحة «لم اعرف، وما زلت لا اعرف، شيء ما ظل يقول لي ربما كان من الافضل ان اشم رائحتي الكريهة، لكني لم افكر ان ذلك هو ما افعله و ـ من يستـطيـع تحمله؟» فجـأة رمى علبـة البيرة المهشمة ونظر الي نظرة مستكينة وابتسم، ثم نهض وسار الى النافذة كما يسير نحو صخرة كبيرة. راقبت وجهه، وراقب هو الشارع «لم استطع ان اقول لك حين ماتت مامـا ـ لكن السبب في رغبتي العنيفة مغادرة هارلم هو رغبتي بالهروب من المخدرات. ثم حين هربت، كان ذلك هو ما هربت منه ـ في الواقـع. حين عدت، لم يتغـير شيء، انـا لم اتغير، انما صرت ـ اكبر وحسب». توقف ونقـر باصـابعه على حافة الشباك. اختفت الشمس وسـوف يسـود الظلام بعد قليل؛ راقبت وجهه «يمكن ان يجيء مرة اخرى».قال وكأنه يتحدث مع نفسه، ثم استدار الي «يمكن ان يعود مرة

اخرى» كرر القول «أريدك ان تعرف وحسب»

«حسن» قلت له اخيراً «يمكن ان تعود الحالة مرة اخرى. حسن جدا».

ابتسم، لكن ابتسامته كانت حزينة «كان يجب علي ان احاول ابلاغك».

«نعم» قلت «افهم ذلك».

«انت اخي» قال وهو ينظر الي مباشرة دون ان يبتسم على الاطلاق.

«نعم» كررت «نعم، افهم ذلك».

عاد الى النافذة، ينظر خارجها «كل ذلك الحقد في الاسفل» قال كل ذلك الحقد والشقاء والحب. انها لاعجوبة ان لا ينفجر الشارع كله بفعلها».

ذهبنا الى احد المراقص الواقعة في شارع قصير مظلم في مركز المدينة. حشرنا نفسينا بين الناس في الحانة الضيقة المزدحمة الضاجة الى مدخل غرفة كبيرة حيث مسرح الفرقة الموسيقية. وقفنا هناك برهة لان الانوار كانت شاحبة حيث تصعب الرؤية ثم «اهلا يا فتى» قال صوت وظهر رجل اسود ضخم اكبر سنا من سوني ومني، وشع الضياء فرأيناه يضع يده حول كتف سوني «كنت اجلس هنا» قال لنا «بانتظاركما».

له صوت ضخم ايضا، فاستدارت الرؤوس نحونا.

ابتسم سوني وابتعد قليلا وقال: «كريول، هذا اخي الذي اخبرتك عنه».

صافحني كريول «سعيد بلقائك يا ولدي» قال وكان من الواضح انه سعيد بلقائي في هذا المكان، ولأجل سوني. ابتسم «لديكم موسيقي اصيل في العائلة» رفع يده عن كتف سوني ثم ربته بظاهر يده وبمودة.

«حسن، سمعت الان كل شيء» قال صوت ما وراءنا. كان موسيقيا اخـر، صديقـا آخـر لسـوني فاحم السواد بشوشا قامته قريبة من الارض. بدأ فورا يحدثني باعلى صوت وبافظع الاقوال ـ عن سوني أسنـانـه. تلتمـع مثل الفنار، وضحكته تتصاعد اشبه ببداية الهزة الارضيـة. ظهـر ان جميع من في الحانة يعرف سوني، بعضهم من الموسيقيـين العـاملين هنـاك او في اماكن مجاورة او من العاطلين، وبعضهم من المتسكعـين وبعضهم جاء ليستمـع الى عزف سوني. قدموني الى الجميع وكان هؤلاء في غاية الادب والكياسة معي. مع ذلك ، كان من الواضح اني لم اكن بالنسبة اليهم الا شقيق سوني وحسب. ها هنا عالم سوني. او الاحرى مملكته. هنا، لم يشك احد ان في عروقه يسري دم ملكي.

سيبـدأ العزف بعد قليل أجلسني كريول وحدي على طاولة في زاوية مظلمة. راقبتهم: كريول، الرجل الاسود الصغير وسوني والبقية، اثناء تحضيراتهم وهم يقفون عند منصة العزف. انارة المنصة تصل قريبا منهم، راقبتهم يتضاحكون ويؤشرون ويتحركون، احسست انهم رغم ذلك يحذرون الدخول الى دائرة الضوء اسرع مما يجب: اذ لو تحـركوا في دائرة الضوء على هذا النحو ودون تفكير فسوف يحرقهم لهيبه. ثم، اثناء مراقبتي، تحرك احدهم، الرجل الاسود الصغير ودخل

دائـرة الضوء واجتاز منصة العزف وبدأ يداعب طبوله. ثم على نحو مضحك ومع ذلك بكثير من الطقسية ـ اخذ كريول بيد سوني وقاده الى البيـانـو. هتف صوت امرأة باسم سوني فبدأت الاكف بالتصفيق. سوني خطا بدوره و بهيئة مضحكة وطقسية ومتأثرة، كما اظن الى حد البكاء دون ان يحاول اخفاء مشاعره او اظهارها، بل تحملها برجولة، ابتسم ووضع كلتا يديه على قلبه وانحنى».

ذهب كريـول الى الكمان، وتقدم رجل اسمر اللون الى منصة العزف والتقط بوقه. اولئك هم، وبدأ الجو على المنصة كما في الغرفة بالتغـير والتـوتر. اخذ احدهم مكبر الصوت وقدمهم للجمهور. بدأت اصناف شتى من الغمغمات. بعض من يقف عند البار اسكت البعض الآخر. تراكض الندل مسرعين لتلبية الطلبات الاخيرة، دنا الفتيان من الفتيات، تحولت الانوار في منصة العزف وما حولها الى نوع من الازرق الغامق. نظر كريول الى ما حوله للمرة الاخيرة كمن يريد التأكد من ان دجاجاته دخلت القن. ثم قفز وعزف كمانه. وبدأوا.

كل ما اعرفه عن الموسيقى هو ان اغلب الناس لا يستمعون اليها حقـا. وحتى حين يفعلون وفي المناسبات النادرة حين ينفتح شيء ما بداخلهم لتدخل منه الموسيقى فان ما نسمعه اساسا او ما نلتقطه انما هي استغاثتنا الشخصية والسرية والمتلاشية. لكن من يخلق الموسيقى يسمـع شيئا اخر، يتعلق بالهدير المتصاعد من الفراغ ليفرض عليه نظاما فور ملامسته للهواء. فما يحضر في داخله آنذاك انما هو نظام آخر اكثر رهبة لأنه يخلو من الكلمات فهو منتصر ايضا للسبب نفسه.

وانتصاره هذا ـ حين ينتصر، هو انتصارنا. راقبت وجه سوني. كان وجهه مضطربا، كان يجتهد لكنه لم يكن معه. ساورني الاحساس ان جميع من على المنصة ينتظرونه، ينتظرونه ويدفعونه في وقت واحد. ولكن ما ان راقبت كريول حتى ادركت ان كريول هو الذي يسيطر عليهم جميعا. وهو الذي يمسك بأعنتهم. هناك في الاعلى، يضبط الايقاع بجسده كله، منتظرا وعيناه نصف مغمضتين مستمعا لكل شيء، لكنه يستمع الى سوني على نحو خاص. يتحاور معه. اراد لسوني مغادرة الشاطيء متجها الى المياه العميقة. كان شاهد سوني على ان المياه العميقة كان شاهد سوني على ان المياه العميقة لا تعني الغرق ـ فلقد كان هناك، ويعرف. ويريد لسوني ان يعرف بدوره ينتظر من سوني ان يسيطر على مفاتيح آلته بما يدله على وصوله الى المياه العميقة بأمان.

واثناء سماع كريول، تحرك سوني الى الاعماق اشبه بشخص يتعذب. لم افكر من قبل برهبة العلاقة بين الموسيقي وآلته. عليه ان يملأها، هذه الآلة، بنسغ الحياة، حياته الخاصة. عليه ان يجعلها تفعل ما يريده منها. وحيث ان البيانو ليس الا آلة لا غير. صنعت من خشب كثير واسلاك ومن مطارق كبيرة وصغيرة ومن العاج. ولكن بالامكان جعل هذه الآلة تفعل الكثير والطريقة الوحيدة لاكتشاف ذلك هي المحاولة، محاولة جعلها تفعل كل شيء.

وسوني لم يقترب من البيانو منذ ما يربو على السنة. ولم يكن منسجما مع حياته،الحياة التي تمتد امامه الان. سوني والبيانو تلعثما، يبدآن في طريق، يخافان، يتوقفان ثم يبدآن طريقا اخر يرتعبان،

يسجلان زمنا، ويبدآن من جديد: ثم بدا انهما عثرا على الاتجاه، ارتعبا من جديد فتوقفا. وجه سوني الذي رأيته كان وجهاً لم اره من قبل ابداً. كل ما فيه محترق وفي الوقت نفسه الاشياء المختبئة فيه قد احترقت بنيران غضب المعركة الضروس التي يخوضها في اعماقه هناك.

مع ذلك، احسست لدى مراقبة وجه كريول وهم يقتربون من نهاية الوصلة الاولى ان شيئا ما قد حصل، شيئا لم اسمعه. انتهوا وصفق بعض الحضور، ثم، دون انذار، بدأ كريول شيئاً آخر، اقرب الى السخرية، كان (انا حزين) وكأنه وجّه امرا الى سوني، بدأ سوني بالعزف. بدأ الحدث. فاطلق كريول الأعنة. قال الرجل الاسود القصير شيئا رهيباًهامساالطبوله، ورد كريول عليه، واجابته الطبول. الح البوق بصوته الرقيق المرتفع النائي قليلا، استمع كريول اليه وهو يعلق بين آونه واخرى، بنقرة جافة مثيرة، جميلة وهادئة، وقديمة. ثم عزفوا معا من جديد، وعاد سوني فردا من العائلة. استطعت معرفة ذلك من وجهه. بدا انه عزف هناك، تحت اصابعه مباشرة، على البيانو الجديد اللعين. بدا انــه لا يستطيع السيطرة عليه. ثم. بعد. برهة، ولمجرد سعادتهم بوجود سوني معهم، بدا انهم يتفقون معه على ان البيانو الجديد ليس اكثر من كلام فارغ حتماً.

تقدم كريول الى امام ليذكرهم ان ما يعزفونه انما هو موسيقى البلوز الحـزينة. ضرب وتراً حساساً فيهم جميعاً، وفيَ ايضاً. توترت الموسيقى وتعمقت وسادت الخشية في الجو. بدأ كريول يحكي لنا عن معنى موسيقى البلوز. ولم تكن شيئا جديدا جدا. هو وفتيانه احتفظوا

بهـا في صيغـة متجددة مخاطرين بمواجهة الدمار والهلاك والجنون والموت كل ذلك من آجل اكتشاف سبل جديدة لدفعنا الى الانصات. اذ كانت حكاية كيفية معاناتنا، وكيفية سعادتنا وكيف يمكن لنا ان ننتصر، كلها ليست حكايات جديدة، ولكن من الضروري سماعها. ليست هناك حكاية اخرى لتروى، انها الضوء الوحيد الذي نملكه في هذه الظلمة.

هذه الحكاية، بالنسبة الى ذلك الوجه وذلك الجسد وتلك اليدين القويتين على الاوتار، لها جانب مختلف في كل بلد، وعمق جديد مع كل جيل. بدا كريول وكأنه يقول اسمع، اسمع. اليكم موسيقى سوني. جعـل الرجل الاسود عازف الطبول يعرف ذلك، والرجل الاسمر على البوق يعرف، لم يعد كريول يحاول دفع سوني الى المياه العميقة. بل يدعوه الى الاسراع. ثم تراجع خطوة الى الوراء، ببطء شديد، ليملأ الجو بالترقب العظيم لما سيحكيه سوني بنفسه.

تجمعوا كلهم حول سوني، وعزف سوني. بدا كل منهم وكأنه يقـول بين اونـة واخرى (آمين). ملأت اصابع سوني الجو بالحياة، حياته. لكن حياته هذه احتوت حيوات عدة. وعاد سوني الى الوراء وبدأ بالجملة الاستهـلالية الاولى للاغنية. ثم جعلها اغنيته. كانت رائعة الجمال لانها لم تكن متعجلة وسريعة ولم تعد اغنية نادبة. بدا اني اسمع. ايّ احتراق جعلها اغنيته، واي احتراق يجعلها اغنيتنا. وكيف يمكن لنا ان نجعلها توقف ندبنا. الحرية تلوح حولنا، وفهمت اخيرا انه يستطيع مساعدتنا لكي نكون احرارا ان استمعنا، وانه لن يكون حراً ما لم نكن كذلك. مع ذلك، لا توجد معركة نخوضها الان.

سمعت ما عاناه، وما سيظل يعانيه حتى يعود الى الارض. انه يجعل هذه الحرية ملكاً له: هذا الخط الطويل الذي لم تعرف فيه غير أبينا وامنا. ها هو يعيده الينا، كما يجب اعادة كل شيء، لكي يعيش الى الابد عبر سلسلة الموت. رأيت وجهه من جديد. واحسست للمرة الاولى كيف مزقت قدميها حجارة الطريق الذي سارت فيه. رأيت الطريق الذي ينيره القمر حيث مات شقيق ابي. واعاد لي شيئا اخر، وحملني خلاله، رأيت ابنتي الصغيرة واحسست بدموع ايزابيل، واحسست بدموعي تبدأ بالانهمار. ادركت لحظة ان العالم في الخارج ينتظر. عالم جائع كالنمر، وان المشاكل تمتد فوقنا اكبر من السماء.

ثم انتهى كل شيء. تنفس كريول وسوني الصعداء، يغطيهما العرق والابتسام. قابلهما تصفيق حاد، الكثير منه تصفيق حقيقي. وفي الظلمة، تقدمت النادلة وطلبتُ اليها ان تقدم الكؤوس الى المنصة. بعد فترة طويلة، اثناء تبادلهم الحديث في الضوء الازرق الخافت رأيت الفتاة تصعد اليهم. بالشراب، وضعت على بيانو سوني كأس ويسكي، وحليباً. لم يبد انه لاحظها، ولكن قبل معاودة العزف بقليل، رشف منه ونظر الي وهز رأسه ثم اعاده الى البيانو. لاجلي اذا يعاود العزف، ظل الكأس يلتمع ويهتز فوق رأس اخي اشبه بكأس تهتز بالمشاعر.

ريشارد رايت

الرجل الذي ذهب الى شيكاغو



حين استيقظت صباحاً كانت درجة الحرارة قد هبطت الى ما دون الصفر. البيت بارد واشبه بالشوارع الجنوبية شتاءً. ارتديت ملابسي لبست ضعف ما اعتدت عليه. اكلت في احد المطاعم، ركبت الحافلة واتجهت جنوباً، بقيت فيها حتى لم اعد اشاهد اي وجه اسود في الطرقات. ها قد اجتزت الحدود التي تشكل الحزام الاسود ودخلت المنطقة التي ربما توفرت فيها اعمال عند البيض. سرت في الشوارع وانا انظر الى نوافذ المحلات حتى رأيت رقعة في نافذة محل بيع الاطعمة الجاهزة:

«مطلوب حمّال».

دخلت، جاءتني امرأة بيضاء طويلة القامة ضخمة، سألتني «ماذا تريد؟».

ازعجتني لكنتها.

«تصورتكم بحاجة الى حمّال» قلت لها.

«السيد هوفمان ليس موجوداً الان» قالت لي «هل تنتظره؟».

«نعم يا سيدتي».

«اجلس».

«لا يا سيدتي سانتظره في الخارج».

«لكن الجو بارد هناك».

«لا بأس».

هزت كتفيها. خرجت الى الرصيف. انتظرت قرابة نصف ساعة في البرد القارس وانا اشعر بالندم لعدم بقائي في المخزن الدافئ، لكني لم اكن قادراً على العودة اليه. رجل اصلع متين البنية ابيض «دخل المخزن» وخلع معطفه. نعم انه صاحب المحل..

«أتريد العمل؟» سألني.

«نعم سيدي» اجبته وانا اخمن معنى كلماته

«اين عملت من قبل؟».

«في ممفيس بولاية تنسي.».

«عمل زوج اختي مدة في تنسي» قال.

واشتغلت. العمل سهل، ولكن لسوء حظي وجدت اني لا افهم ثلث ما يقوله لي. اذ ما اعتادت اذ ناي الجنوبيتان على لهجتهما الغائمة الثقيلة. صباح احد الايام طلبت مني السيدة هوفمان الذهاب الى مخزن مجاور - يملكه احد ابناء عمومتها - وآتي منه دجاجة (ملوكية). لم اسمع مثل هذه العبارة من قبل وطلبت منها اعادتها على مسمعي.

«الا تعرف شيئاً؟» سألتني.

«لو كتبتها لي، فسأعرف ما أجي به» قلت لها.

بخجل.

«لا اعرف الكتابة!» صرخت بي بقسوة مفاجئة.

«اي صنف من العمال انت؟».

حفظت مقاطع الاصوات التي تلفظتْ بها وذهبت الى المخزن المجاور. وكررت امام الرجل ما طلبته السيدة هوفمان محاولاً تلفظ الكلمات كما سمعتها منها وببطء وانا أتمنى ان لا اخطىء اللفظ فيشعر بالاهانة.

«حسن» قال الرجل بعد ان حدجني بنظرة طويلة.

وضع علبة في كيس ورقي واعطاه لي، فتحت الكيس بعد خروجي وقرأت العلامة على العلبة: دجاج ملوكي. لعنت نفسي وانا اشعر بالتقزز منها. انا اعرف هذه الكلمات. انما ضللتني لهجتها الثقيلة. ومع هذا لم اشعر بالغضب من السيدة بسبب لغتها الضعيفة، فلغتي ضعيفة بدورها. ولكن الم يكن بامكانها ان تعاملني بالمزيد من الصبر؟ جواب واحد جال في ذهني. انا اسود ولذلك لا يهمها أمري. او ذلك ما تصورته.. فانا ما زلت انظر الى ما يحيط بي في ضوء عالمي القديم. فكرت على هذا النحو: الانجليزية هي لغتي الام، وامريكا وطني، أما هي فغريبة لكن بامكانها ان تمتلك مخزناً وتكسب عيشها منه في بلدة لا تسمح لي حتى بالحياة فيها. فضلا عن ذلك تصورت بانها تعي هذه الحقيقة. لذلك تحاول حماية مصالحها.

لم اكتشف مدى الخطأ الذي وقعت فيه في اساءة فهم دوافع السيد هوفمان وزوجته وسلوكيتهما. لم اكن قد تعلمت بعد ما يمكن ان يعينني في شق طريقي بين هذه العلاقات العنصرية المربكة. نظرت الى محيطي حسب قيمه الظاهرية وقد وقعت في شراك عواطفي الخاصة،

وظللت اسأل نفسي عما جناه السود ليجلبوا على انفسهم هذا العداء المجنون؟

كان واقع الفصل العنصري بين البيض والسود واضحاً لدي فهو يرمي بأثره على شخصيات الناس الذين يتحدونني ويخيبون آمالي، لم أشعر اني اشكل اي تهديد لأي كان، ومع ذلك، وما إن كبرت الى الحد الذي يكفي لابدأ التفكير، تعلمت ان شخصيتي وتطلعاتي كلها قد فقدت منذ امد بعيد، وحتى معاني الكلمات التي افوه بها لا يمكن ان تفهم كاملة.

وحين تأملت منطقة الارض الحرام التي تغلف ذهن الزنوج في امريكا تساءلت ان وجد في التاريخ الانساني كله هجوم اكثر شمولية وعنفا على شخصية الانسان من فكرة التمييز العنصري. ولكي اهرب من الهجوم العنصري الذي يمتد الى جذور حياتي، كنت مستعدا للقبول بأية طريقة للحياة باستثناء الطريقة التي وجدت نفسي اعيشها. كنت سأقبل العيش في ظل نظام الظلم الاقطاعي، لا لأني افضل الاقطاع انما لشعوري ان الاقطاع يستخدم جزءا محدوداً من الانسان ويحدد به مرتبته ووظيفته الاجتماعية. كنت سأقبل العيش في ظل اكثر الانظمة الدكتاتورية قسوة لاني احسست ان الدكتاتورية تحدد استخدامها للانسان مهما كان هذا الاستخدام مهينا.

اثناء اشتغالي حمّالاً في ممفيس غالبا ما اذهلني موقف احد اصدقائي اذ يعرض نفسه للضرب امام البيض، اما الان وحين عملت في شيكاغو بدأت ادرك ان الضرب أهون من عدم اليقين.. لقد اخترت

في طريق بحثي المحموم عن تعديل مشرف لمنظور امريكا، عدم الخضوع. وفي ذلك واجهت الرعب اليومي والقلق والتوتر والاضطراب الابدي.. استطعت الان ان اتعاطف مع اولئك السود الذين استسلموا وذهبوا الى معذبيهم من البيض ليقولوا لهم «اضربوني فأنا لا استحق غير الضرب» اضربوني لأحس بالارتياح، ثم دعوني اعيش بسلام!» رغم اني لن استطيع ان افرض على نفسي القبول بهذا الحل.

تحدد كراهية اللون موقع حياة السود في موضع ادنى من حياة البيض، والرجل الأسود انما يحلم احلام الرجل الابيض نفسها، لكنه يجتهد لكي يخرج من قلبه الوعي بهذا الفرق ويدفنه لانه يجعله يحس بالوحدة والخوف. انه مكروه من البيض لكنه جزء عضوي من الحضارة التي تكرهه فبدأ الرجل الاسود بدوره في كراهية ذلك الجزء من نفسه الذي يكرهه الاخرون. لكن كبرياءه تجعله يكره كراهيته لذاته، لانه لا يريد للبيض ان يعرفوا انه مهزوم حتى العمق وأن حياته كلها قد تشكلت بسلوكهم، ولكنه في سعيه لاخفاء كراهيته لذاته لا يستطيع الامتناع عن كراهية اولئك الذين فجروا كراهيته لذاته. لهذا فكل جزء من يومه يستنفد في حربه مع ذاته. ويصرف جل طاقته في المحافظة على زمام السيطرة على مشاعره المضطرمة، التي لم يتمن ان يمتلكها لكنه لا يمتلك الخيار في امتلاكها. نهاره يمتلىء بكراهية الآخرين والانشغال بمشاعره الخاصة فيظل في حرب مستديمة مع واقعه. فصار عديم الكفاءة واقل قدرة على الرؤية والحكم الموضوعي على العالم. و حين وصل الى هذه الحالة نظر اليه البيض وسخروا منه

قائلين .

«انظر، الم اقل ان تلك هي حال الزنوج؟».

من أجل عقدة المشاعر المتضاربة هذه، ملأت القسم الفارغ من سفينة شخصيتي بخيالات الطموح لكي لا تغرق في بحر اللا معنى المتلاطم. فانا احلم مثل اي امريكي آخر بالعمل وجمع الاموال، حلمت أني اعمل في شركة تسمح لي بالترقي حتى اصل موقعا مرموقا فيها، حتى اني حلمت أني اشكل تنظيما سريا للسود لمحاربة البيض كلهم.. واذا رفض السود هذا التنظيم فيجب محاربتهم. هكذا سأصل مرة اخرى الى كراهيـة الذات، لكن كراهية الذات في هذه الحالة سوف تتوجه الى الخارج، على السود الآخرين. مع ذلك كنت اعرف ـ في ذلك الجـزء من ذهني الذي منحني اياه البيض. ان جميع احلامي غير ممكنة التحقيق. فأكره نفسي لاني سمحت لعقلي ان يحلم بمالا يمكن الوصول اليه. فتكمل الدائرة نفسها.

بدأت احفـر في اعمـاق ذاتي نوعـا من الالية التي تخنق كل الاحلام والرغبات التي تثيرها في نفسي شوارع شيكاغو وصحفها و دور السينمـا فيهـا. كنت امر بالطفولة الثانية، وخلق هذا لدي احساساً جديـدا بحدود الممكن. ما الذي يمكن انْ احلمه بحيث امتلك ادنى احتمال لتحقيقه؟ لم استطع التفكير بشيء. ببطء بدأ عقلي بتأمل هذا اللاشيء ذاته، هذا الاحساس الدائم بالرغبة دون امتلاك، ان اكون مكروها دونما سبب. احساس غائم بما تعنيه الحياة لزنجي في امريكا

بدأت اعيه لا بصيغة احداث خارجية مثل الاعدام بدون محاكمة او الجلد وغيرها من مظاهر العنف التي لا تنتهي، انما بصيغة مشاعر متضـاربـة، وتوترات عاطفية. أحسست ان حياة الزنجي هي ارض منبسـطة دون نظام من المعاناة اللاواعية، وليس بين الزنوج الاّ قلة تعرف معنى حياتها وبامكانها ان تروي الحكاية.

بلغني خبـر وجـود امتحـان للتعيين في وظيفة كتابية في دائرة البـريـد، فمـلأت الطلب فورا وانتظرت. حين اقترب موعد الامتحان واجهتني مشكلة اخرى. كيف استطيع الحصول على اجازة يوم دون فقدان وظيفتي الحالية؟ ففي الجنوب ليس من الحكمة لزنجي ان يذهب الى صاحب عمله الابيض ليطلب منه اذناً للمشاركة في امتحان من أجل عمـل اخر. فهذا يعني ان الزنجي لا يحب عمله عند صاحب العمل الابيض هذا و أنه يحس بانه لا يتلقى التقدير الذي يستحق، وحيث ان جميع الاعمال التي يقوم بها الزنوج في الجنوب فيها سمة علاقة شخصية ابوية لذا فهو يخاطر بمواجهة قد تؤدي الى العنف.

بدأت اخمن نوعية الانسان الذي يمثله السيد هوفمان فادركت اني لا اعرفه، واعني بذلك اني لا اعرف جوهر مسلكه تجاه الزنوج. فلو طلبت منـه ما اريد فهل سيتفهم الامر بما يكفي ليسمح لي بيوم اجازة مدفوعة الاجر؟ انا بحاجة الى النقود. ربما قال لي «اذهب الى منزلك وابق فيه ان لم تكن تحب عملك هذا!» لم اكن متأكدا من موقفه. لهذا قررت ان من الافضل لي عدم المخاطرة. من الافضل ان اخسر المال واذهب دون ابلاغه.

كان من المقرر اجراء الامتحان يوم الاثنين. فان واظبت على عملي فسأكون متعباً بحيث لن اكون في حالة تسمح لي بالتهيؤ للامتحان بدون التمتع ببعض الراحة. قررت عدم الذهاب الى المخزن ايام السبت والاحد والاثنين، ولكن ما الذي يمكنني قوله للسيد هوفمان؟ نعم، سأخبره اني كنت مريضاً. لا، تلك حجة واهية. سأقول ان امي ماتت في ممفيس وذهبت لحضور جنازتها.

قد تؤدي الكذبة دورها.

اديت الامتحان، وحين عدت الى المخزن يوم الثلاثاء دهش السيد هوفمان طبيعي.

«لم اظن ابدا انك ستعود».

«آسف جداً يا سيد هوفمان».

«ماذا حدث؟».

«توفيت امي في ممفيس فكان لابد من ذهابي لدفنها».

نظر الي ثم هز رأسه، «ريتش انت تكذب».

«انا لم اكذب» قلت بجرأة.

«اردت القيام بشيء ما، فذهبت» قال وهو يهز كتفه.

«لا يا سيدي، انا اقول الصدق» راكمت الكذبة الاولى بكذبة فوقها.

«لا ، انت تكذب، يا لخيبة املي فيك».

«حسن، كل ما استطيعه هو قول الحقيقة» كذبت دون خجل.

«لم لم تتصل بالهاتف؟».

«لم افكر بالامر» قلت كذبة جديدة.

«ريتش لو ماتت امك لكنت ستخبرني».

«لم يتسن لي الوقت. كان علي اللحاق بالقطار». كذبت مرة اخرى.

«ومن اين جئت بالنقود؟».

«اعطتني اياها عمتي» قلت وانا احس بالقرف لاضطراري الى الكذب مرة بعد اخرى.

«انا لا اريد صبياً يكذب».

«انا لم اكذب».

انضمت اليه السيدة هوفمان وبدا بتقريعي معا «نحن نعرف. انت من الجنوب. وتحس بعدم الرغبة في قول الحقيقة لنا. ولكننا لا نؤذيك. ولا نحس كما يحس البيض في الجنوب. نعاملك بالحسنى. اليس كذلك؟» سألاني.

«نعم يا سيدتي» غمغمت.

«لماذا الكذب اذن؟».

«انا لا اكذب» وكذبت بكل ما املك من قوة.

غضبت لاني اعرف انهما يعرفان اني اكذب. لقد كذبت لكي احمي نفسي، ثم كذبت لاحمي كذبتي. لقد واجهت العديد من الوجوه البيض التي كانت سترفض فكرة خوضي الامتحان ولم اكن لأخاطر بقول الحقيقة للسيد هوفمان. ولكن كيف بامكاني ان اقول له اني كذبت لضعف ثقتي بنفسي؟ الكذب سيء، لكن كشف احساس المرء بعدم الامان هو اسوأ. سيكون باعثا للخجل، وأنا احب الاحساس بالخجل.

اذهلني سلوكهما. يقتطعان من وقت عملهما في المخزن ليتحدثا

الي، ولم اواجه سلوكاً مثل هذا من البيض من قبل. اي ابيض جنوبي كان سيقول لي «اذهب الى الجحيم، اخرج!» او «حسنا ايها الزنجي. اذهب للقيـام بعملك» ولكن اي ابيض لم يكن ليتخـذ موقفاً ليؤنبني ويسألني اسئلة مطولة مثل هذه. خطر في ذهني انهما يحاولان معاملتي بصفتي مسـاعـدا لهمـا. الامر الذي زاد من استحالة اعترافي أني كذبت، ولمـاذا. احسست اني لو اعترفت فسوف امنحهما الافضلية الاخلاقية عليّ وهو ما لن احتمله.

«حسن جدا، ابق واعمل» قال السيد هوفمان.

«اعرف انك تكذب، لكن ذلك لا يهمني يا ريتشارد».

اردت ترك العمل. لقد اهانني. لكني اوده بالرغم مني. نعم، لقد اخطأت، ولكن كيف لي ان اعرف صنف الناس الذين اعمل لديهم؟ ربما رضي السيد هوفمان ان اؤدي الامتحان، لكن آمالي كانت اضعف بكثير من مخاوفي العظيمة.

سحقني الاحساس اني اعمل لديهم يوماً بعد يوم رغم معرفتهم اني كذبت خوفا منهم. كنت اعرف انهم يشفقون على خوفي. قررت ترك العمل والمخاطرة بمواجهة الجوع افضل من بقائي معهم. تركت العمل في السبت التالي دون ابلاغهم باني لن اعود لاني لم اقدر على الوداع. كل ما اردته هو الذهاب بسرعة وجعلهما ينسيان اني عملت عندهما.

بعد أسبوع من البطالة، حصلت على عمل وهو غسل الصحون في مقهى جديـد بالقسم الشمالي. رئيسة العمل امرأة بيضاء وجهتني لغسـل كومـة من الصحـون وترتيب الموائد والطلاء وغير ذلك. كنت

مسؤولاً عن تقديم الفطور اما بعد الظهر فاحمل صواني الطعام الى نزلاء الفندق ممن لا يرغبون الهبوط لتناول طعامهم في المقهى. كان أجري خمسة عشر دولاراً في الاسبوع، وساعات العمل طويلة لكني اعتدت تناول وجبات طعامي في موقع العمل.

الطباخة سيدة فنلندية عجوز ذات وجه حاد ناتيء العظام. وهناك العديد من النادلات البيضاوات. كنت الزنجي الوحيد في المقهى. النادلات مجموعة قاسية سريعة الحركة، وكنت أعي مدى تناقض سلوكهن وسلوك فتيات الجنوب البيضاوات. اذ لم يتعلمن كيفية المحافظة على الهوة التي تفصلهن عني،كن يتمتعن بحرية نسبية وغير مقيدات بتراث الكراهية العنصرية.

في صباح احد الايام كنت أعد القهوة، تقدمت كورا حاملة صينية مليئة بالاطعمة ولامستني وهي في طريقها لاخذ اكواب القهوة.

«عفوا يا ريتشارد» قالت.

«لاباس» قلت بنبرة حيادية.

لكني كنت اعي انها فتاة بيضاء وان جسدها قد لامس جسدي، وهو ما لم يحدث لي من قبل طوال حياتي، حادث يرتبط في ذهني بذكريات مخيفة. لكنها لم تع سواد بشرتي، وماذا يعنيه سلوكها في الجنوب. لو لم اكن قد ولدت في الجنوب لمَر هذا الحدث التافه دون ان الحظه كما لم تلحظه هي. حين وقفت قريبا مني، لم استطع منع نفسي من التفكير انها لو كانت بيضاء جنوبية وارادت تناول فنجان قهوة، لأمرتني ان ابتعد قليلاً تحاشيا لملامستي. ولكان ادى ذلك الى توقف

العمل في المطبخ المزدحم برهة لكي ابتعد بجسدي الملون. والملوث الى مسافة تكفي لان اتيح للفتاة البيضاء الوصول الى الفنجان. هناك احساس عميق بالامان لمعرفتي ان الفتاة البيضاء التي لامستني دون قصد او اهتمام لم تكن تفكر بي، ولم يكن يعتريها ذلك الخوف العميق الغامض غير المعقول الذي يدفعها للتفكير بأني مخلوق ينبغي تحاشيه بأي ثمن.

في صباح احد الايام الصيفية جاءت احدى الفتيات متأخرة عن موعد العمل وركضت الى المخزن حيث كنت منشغلا بعملي. دخلت الى غرفة السيدات وغيرت ملابسها، سمعت صوت فتح الباب وبعد لحظة دهشت لسماع صوتها وهي تقول : «ريتشارد، اسرع! شد حزام مئزري!».

كانت تقف مديرة ظهرها لي وشريطا مئزرها متدليان. احسست برهة بصعوبة اتخاذ القرار، تناولت الشريطين ولففتهما حول جسدها وشددتهما وراء ظهرها بعقدة ضعيفة.

«الف شكر» قالت لي وصافحتني مصافحة لم تدم الا جزء من ثانية وذهبت.

اكملت عملي وقد ملأتني احاسيس شتى عن المعاني الممكنة لهذا الحدث الصغير، البسيط والانساني بالنسبة الى أي زنجي في الجنوب حيث قضيت اغلب ايامي الجائعة.

لم احس بأي اعجاب أو كراهية لهؤلاء الفتيات. واتسم سلوكي بالصبر والدهشة الودية. اقضي اغلب الوقت صامتا معهن رغم اني

اعرف بامتلاكي فهماً اعمق للحياة من اغلبهن. اثناء عملي استمعت الى احاديثهن ولاحظت حيرتهن ودهشتهن ومعالجتهن السطحية لمشاكل واقع الحياة. يتجبن للكثير من الاشياء التي بامكاني تفسيرها لهن، لكني لم اجرؤ ابدا.

اثناء ساعة الغداء التي اقضيها جالساً على مسطبة في الحديقة العامة القريبة، تأتي بعض الفتيات ويجلسن الى جانبي يتحدثن ويتضاحكن ويتمازحن ويدخن السجائر. عرفت احلامهن المبهرجة وآمالهن البسيطة و حياتهن المنزلية، وخشيتهن من المشاعر العميقة، ومشاكلهن الجنسية وازواجهن. كن متحمسات، قلقات، مهذارات وجاهلات. لكنهن في الوقت نفسه ودودات وطيبات. لا يعرفن شيئا من الكراهية والخوف، ويتحاشين العواطف الجياشة بعفوية.

طالما تساءلت عما يردنه من الحياة، ولم اصل الى حل ابدا، وأشك إن كان لديهن اي تصور عن ذلك. عشن حياتهن على سطح ايامهن: ابتساماتهن سطحية ودموعهن كذلك. يعيش الزنوج حياة اكثر واقعية وعمقا من حياتهن، لكني تمنيت ان يعيش الزنوج بمثل هذه البساطة والسطحية. لم تتحدث الفتيات مطلقا عن مشاعرهن، ولم تمتلك اي منهن اي مفهوم او قدرة عاطفية على فهم انفسهن او منهم الاخرين. ما اكبر الفارق الحضاري بيننا! أنا لم افعل طوال حياتي شيئا دون الاحساس به أو بكبح مشاعري وكل حياتهن لم يفعلن الا السعي وراء طموحاتهن المتواضعة، ومردودات الحياة الامريكية المادية التافهة. لغتنا مشتركة، لكن لغتي تختلف كلياً عن لغتهن.

ان النأي النفسي هو الذي يباعد بين الاعراق وهو المعنى العميق لمشكلة الزنوج حسبما اراها. فان فهمت هذه المجموعة من الفتيات البيضاوات الجاهلات حياتي فهذا لا يعني الا احداث ثورة في حياتهن. وكنت مقتنعاً ان ما يحتجنه لكي تكتمل حياتهن هو ان يتسرب الى شخصيتهن فهم ومعرفة نوعية الحياة التي عشتها وعانيت منها على الدوام.

حين افكر الان متذكرا تكلم الفتيات وطريقة حياتهن احس ان على امريكا ـ ان ارادت فهم دلالة مشكلة الزنوج ـ ان تكون اكثر سعة وصلابة من امريكا التي نعرف. أحس ان تاريخ امريكا تاريخ ضحل، سمتها الوطنية هي التفاؤل والسطحية اكثر مما يجب، واخلاقيتها امتلأت بالكره للملونين. اكثر مما يسمح لها بانجاز مهماتها الواسعة والمعقدة. من الناحية الحضارية يمثل الزنجي تناقضا: فرغم انه جزء عضوي من الامة، الا انه خارج نطاق الحضارة الامريكية واتجاهاتها. لقد احسوا انهم على حق بأبعاده، ويحسون ان من الخطأ السماح له بدخول هذا النطاق بحرية. لهذا، وضمن محددات الحضارة الحالية، فان ارادت الأمة تخليص نفسها من كراهية اللون، فإنها ستجد نفسها في حرب مع نفسها، يهزها الاضطراب العاطفي والاخلاقي. فان ارادت الامة أن تتفحص واقع العلاقة بالزنجي، فانها ستجد نفسها مضطرة لفعل ما هو اكثر من ذلك، ذلك ان السلوك المعادي للزنوج ليس الا جزءا ضئيلا من مشكلة الأمة الاخلاقية رغم اهميته الرمزية. أمتنا الامريكية الفتية جدا والجديدة جدا، تتميز بالشهوانية بسبب وحدتها،

وبالعدوانية بسبب خوفها، لكنها تصر على ان ترى العالم على انه ليس اكثـر من طيب أو رديء، مقـدس او شرير، عالي او واطيء اسود او ابيض. امريكا خائفة من واقعها ومن تاريخها ومن عملياتها وبحكم الضرورة. انها تحتضن الطريقة السهلة التي تفرضنها على من لا تقدر على فهمهم وتبعد من لا يتبعونها، وتغلف ضميرها برداء من السلامة. هل ألعن وطني؟ كلا، لأني انا ايضا أقاسمهم اخطاءهم ! ولا اظن في الواقع، ان امريكا المراهقة الواثقة من نفسها اكثر مما ينبغي والغريبة عن المعاناة و الكد، عدوة العواطف والتضحيات. امريكا هذه ليست مستعدة بعد للتشكيك بقناعاتها الجوهرية.

عرفت ان ليس العرق وحده، ولا اللون وحده انما القيم اليومية التي تعطي معناهـا الحياة هي ما يقف بيني وبين هؤلاء الفتيات البيضـاوات اللائي أعمـل معهن: بحثهن عما هو خارجي، هوسهن بالراديو والسيارات والوف التفاهات الاخرى تجعلهن يحلمن ويركزن بصرهن على الحياة التافهة، الامر الذي يجعل من المستحيل عليهن تعلّم اللغـة التي تمكنهن من تبـادل الحـديث عما في قلوبهن وقلوب الاخرين. كلمات الروح التي تتشكل منها مقاطع الاغنيات الشعبية.

اعتقد ان جوهر السخرية في ورطة الزنوج الامريكان هي انهم محكومون بالعيش في عزلة، في حين يسعى الذين اصدروا هذا الحكم الى ادنى الاهداف التي يمكن ان يسعى اليها اي شعب من شعوب الارض. ربما امكن للزنجي ان يتأقلم مع ورطته لو اقتنع أن لمعاناته هدفا بعيدا ساميا، لكن مشاركته في الحضارة التي تدينه، ورؤيته كل

هذا التهافت على التفاهات هو ما يعمي عين الامة عن مطالبه فذلك هو ما يؤجج التورة في روحه.

رغم هروبي من ضغوط الجنوب، الا ان سلوكي الخارجي لم يتغير. تعلمت ان ابدو بوجه باسم من طرف واحد، وظللت افعل ذلك رغم تسامح بيئتي الجديدة بتعبيرات اكثر انفتاحاً. اخفيت مشاعري وتحاشيت جميع العلاقات بالبيض التي قد تضطرني لكشفها.

كانت الطباخة تيلي الفنلندية امرأة طويلة يصعب تحديد عمرها، حمراء الوجه ذات عضلات مرتخية، شعرها طويل اشيب تعقده دوما في مؤخرة عنقها. تطبخ بمهارة وذات كفاءة ممتازة. في صباح احد الايام مررت بالموقد وهو يئز، واظن اني سمعت تيلي تسعل ثم تبصق، لكني لم ار شيئاً، فوجهها يغطيه البخار وهي منحنية على القدر الكبير. احسست ان تيلي سعلت ثم بصقت في القدر، لكن قلبي قال لي ان ليس من مخلوق بشري يمكن ان يكون بهذه القذارة. قررت مراقبتها. بعد حوالي ساعة سمعت تيلي تسعل ثم رأيتها تبصق في القدر. كتمت انفاسي، لم ارد تصديق ما رأيت.

هل يجب ابلاغ رئيسة العمل؟ هل ستصدقني؟ راقبت تيلي يوما آخر لكي أتاكد .. انها تبصق في الطعام فعلا. كانت تفعل، وليس من شك في ذلك. ولكن من سيصدقني لو أخبرتهم بما يحدث؟ كنت الاسود الوحيد في المقهى. ربما تصوروا اني اكره الطباخة. فامتنعت عن تناول طعامي وانتظرت.

توسع العمل في المقهى سريعا وعينوا فتاة زنجية لصنع

السلطات. ذهبت اليها فورا.

«اسمعي، أيمكنني الثقة بك؟» سألتها.

«ما الذي تتحدث عنه؟».

«اريدك ان لا تقولي شيئا، انما راقبي الطباخة».

«لأي سبب؟».

«لا تخافي. راقبي الطباخة وحسب».

نظرت الي كما لو ظنتني مجنوناً، وبصراحة احسست اني ربما ما كان علي ان اقول شيئا لاحد.

«ما الذي تعنيه؟».

«حسن جدا» قلت لها «سأخبرك. هذه الطباخة تبصق في الطعام».

«ما الذي تقوله؟» سألتني بصوت عال.

«خفضي صوتك».

«تبصق؟» سألتني هامسة «ولِم تفعل ذلك؟».

«لا اعرف. انما راقبيها».

ابتعدت عني وهي تنظر الي نظرة غريبة. ولكن بعد نصف ساعة عادت مسرعة الي، ويبدو الغثيان عليها وجلست على كرسي.

«اوه، يا الهي، احس بفظاعة!».

«هل شاهدت الامر؟»

«انها تبصق في الطعام فعلا».

«ما الذي يجب ان نفعله؟» سألتها

«نبلغ صاحبة المحل».

«لن تصدقني».
اتسعت عيناها حين فهمت ما اعني. كلانا اسود في حين ان الطباخة بيضاء.
«ولكن لا يمكنني ان اعمل هنا ان كانت تفعل ذلك».
«اذاً خبريها انت».
«لن تصدقني انا ايضا».
نهضت وركضت الى غرفة السيدات. حين عادت حدقت في وجهي. كنا زنجيين نتساءل دون كلمات ان كانت صاحبة العمل البيضاء ستصدقنا لو اخبرناها ان طاهيتها الماهرة تبصق في الطعام طوال النهار ظالما هو على الطباخ.
«لا اعرف» انتحبت بصوت خافت وسارت بعيدا.
فكرت بابلاغ النادلات بشأن الطباخة، لكني لم امتلك الشجاعة الكافية. فاغلب الفتيات على علاقة طيبة بالطباخة. ومع ذلك لم استطع السماح للطباخة ان تبصق في الطعام طوال النهار. هذا خطأ على كل مستويات السلوك الانساني. غسلتَ الصحون وانا افكر متسائلاً قدمت الفطور وانا افكر متسائلا، قدمت الوجبات الى الشبقق العلوية وانا افكر متسائلا في كل مرة احمل صينية طعام احس بالغثيان. اخيراً جاءتني زنجية السلطات واعطتني حقيبتها وقبعتها.
«سأخبرها واترك العمل، اللعنة» قالت:
«سأترك أنا العمل ايضا ان لم تطردها.» قلت.
«اوه، لن تصدقني» انتحبت بالم.

«قولي لها. انت امرأة. قد تصدقك».

امتـلأت عيناها بالدموع وجلست فترة طويلة، ثم نهضت وذهبت مسرعة الى غرفة الطعام. ذهبت الى الباب ومددت بصري. نعم كانت قرب المكتب تتحـدث الى صاحبـة العمل. عادت الى المطبخ ومنه الى المخزن فلحقتها.

«هل ابلغتها؟»

«نعم».

«ماذا قالت؟».

«قالت اني مجنونة».

«اوه، يا إلهي!»

«نظرت الي بعينيها الرماديتين وحسب» قالت الفتاة «لماذا تفعل تيلي ذلك؟».

«لا اعرف» قلت لها.

جاءت صاحبة العمل الى الباب ونادت الفتاة. ذهبتا معا الى غرفة الطعام. جاءتني تيلي وفي عينيها نظرة حادة باردة.

«ما الذي يحدث هنا؟» سألتني.

«لا اعرف» قلت وانا اغالب رغبتي في صفعها على فمها.

غمغمت بشيء ما وعادت الى الموقد، سعلت وبصقت في القدر الذي يغلي. غادرت المطبخ وذهبت الى الباحة الخارجية لأشم نفسا. خرجت صاحبة العمل..

«ريتشارد».

كان وجهها شاحبا. وكنت ادخن سيجارة ولم انظر اليها.

«هل هذا صحيح؟».

«نعم يا سيدتي.».

«مستحيل. اتعرف ما تقوله؟».

«راقبيها وحسب».

« لا ادري» قالت بنبرة متألمة.

بدت مسحوقة. عادت الى غرفة الطعام، لكنني رأيتها تراقب الطباخة عبر الباب. راقبتهما معا. صاحبة العمل والطباخة. داعيا الله ان تبصق الطباخة مرة اخرى. وفعلت. دخلت صاحبة العمل الى المطبخ وهي تحدق في وجه تيلي، لكنها لم تفه بكلمة. انفجرت باكية وركضت الى غرفة الطعام.

«ما الذي يحدث هنا؟» سألت تيلي.

لم يرد عليها احد. دخلت صاحبة العمل ورمت وجه تيلي بمعطفها ونقودها وقبعتها.

«والان، اخرجي من هنا ايتها الكلبة القذرة!»

حدقت تيلي بوجهها، ثم التقطت قبعتها ومعطفها والنقود ببطء شديد، ووقفت برهة، مسحت العرق عن جبينها بيدها، ثم بصقت - هذه المرة على الارض. وخرجت.

لم يفهم احد السبب وراء بصاق تيلي في الطعام.

اثناء تأملي حالة تيلي، تذكرت مرة حين جاءني رب عملي في

ميسيسبي ورمى اجري في وجهي وهو يقول:

«اخرج، ايها الزنجي! انا لا احب شكلك»

وتساءلت هل ان الزنجي الذي لا يبتسم هو كريه اخلاقياً عند البيض مثل الطباخه التي تبصق في الطعام؟

في الصيف التالي استدعيت الى وظيفة مؤقتة في مكتب البريد، واستمر عملي فيه طوال الشتاء. اصيبت العمه كليو بنوبة قلبية حادة، بعد مرضها مباشرة اصيب اخي بقرحة المعدة. ومما زاد في تصعيد قلقي الى ذروته هو مرض امي. احسست اني صرت مسؤولاً عن مستشفى خاص. اخيرا، انتهى عملي في مكتب البريد وصرت اسعى للعثور على عمل في طول المدينه وعرضها. ولكني حين اخرج الى الشوارع صباحا ارى مشاهد تقتل الامل في نفسي ما بقي من النهار: عاطلون يتسكعون عند الابواب بنظراتهم الفارغة، ويجلسون على اعتاب الابواب بملابسهم الرثة، يتجمعون في زوايا الشوارع، وعلى مساطب الحدائق العامة في مركز مدينة شيكاغو.

جاءني الحظ بقدوم احد ابناء عمومتي الذي يعمل مراقبا في شركة لدفن الزنوج، وعرض علي العمل وكيلا معه. لكن فكرة بيع بوليصات التأمين الى الزنوج الأميين بعثت التقزز في نفسي.

«حسن. ان لم تبعها انت، باعها غيرك» قال لي ابن عمي «ولابد لك ان تأكل، اليس كذلك؟».

عملت خلال تلك السنة في عدة شركات للدفن او التأمين للزنوج وتلقيت تعليماً من صنف جديد. وجدت ان شركات الدفن، مع بعض

الاستثناءات، ليست الا (خدعة). يقوم بعضها بعمله بصورة قانونية لكن اكثرها تستغل جهل زبائنها السود.

كان اجري يحسب على اساس خمسة عشر دولاراً لكل بوليصة اسجلها في دفاتر الشركة واغرم خمسة عشر دولارا عن كل بوليصة تسقط. بالاضافة الى ذلك تدفع لي عمولة تبلغ عشرة بالمائة عن مجمل المبالغ، ولكن خلال فترة الانكماش الاقتصادي كان من الصعب جدا ان اقنع عائلة سوداء بشراء بوليصة تأمين. وكنت اعد نفسي محظوظا ان كانت محصلة عملي خمسة عشر دولاراً اضعها في جيبي.

هذا النهج من (المقامرة) تقوم به بعض شركات الدفن بسبب العدد الكبير من (الرافضين) من حملة البوليصات ويجب ان تحتفظ الشركة بسيل لا ينتهي من الزبائن لكي تظل مستمرة في العمل. وحينما تنتقل احدى عوائل السود او تواجه ظروفا صعبة فانها لا تدفع اقساط بوليصاتها، ثم تعود لشراء بوليصة جديدة من شركة اخرى عند تحسن احوالها.

صرت اشاهد في كل يوم كيف يعيش الزنجي في شيكاغو، لاني ازور مئات الشقق البائسة ذات الاثاث الرث والاطفال المرضى. كان اغلب حملة البوليصات من الاميين ولا يعرفون ان بوليصاتهم تحتوي فقرات تقيد دفع الفوائد لهم، ولم يكن من واجبي، وكيلاً للتأمين ان اخبرهم بها.

بعد الطواف في الشوارع ودق الابواب لجمع الاقساط، أمسي جافه ومشدودا فلا اقوى على القراءة او الكتابة لشدة تعبي. فاتلهف الى

الراحة، وبصفتي رجل مبيعات بوليصات التأمين كنت اجد الراحة لدى العديد من الفتيات السود. فالكثير من ربات البيوت السوداوات الوسيمات يحاولن بكل الطرق الاستمرار في دفع ما يستحق من اقساط التأمين ومستعدات لفعل اي شيء لئلا يدفعن نسبة العشرة بالمائة نقداً. ومررت بعلاقة طويلة معذبة مع فتاة كنت ادفع عنها العشرة بالمائة اسبوعيا. كانت اقرب الى الطفولة وأمية ولديها طفل لا تعرف أباه. طوال علاقتي بها لم تطلب مني شيئا واحدا: ارادتني ان اخذها الى السيرك. ولم اعرف لحد الان ما الذي يعنيه السيرك بالنسبة اليها.

في صباح احد الايام كنت معها ـ مقابل تسديد القسط ـ أجلس على الاريكة في الغرفة الامامية اقرأ كتاباً كان معي.

جاءتني خجلة وقالت:

«دعني اراه».

«ماذا؟» سألتها.

«هذا الكتاب».

اعطيتها الكتاب فنظرت اليه باهتمام. لاحظت انها تمسكه مقلوبا.

«ماذا يوجد فيه لتقرأه؟» سألتني.

«الا تعرفين القراءة حقا؟».

«لا» وضحكت «انت تدري اني لا اعرف القراءة».

«لكنك تعرفين بعض الشيء حتما».

«لا».

حدقت في وجهها وتساءلت عن معنى حياتها في ضوء مجمل

الحياة العامة، توصلت الى انها لا تعني شيئا. كما لم تعن حياتي اي شيء.

«لماذا تنظر الي على هذا النحو؟».

«لا لشيء».

«انت لا تتحدث كثيرا».

«ليس هناك الكثير لقوله».

«تمنيت لو كان جيم هنا» وتنهدت.

«ومن هو جيم؟» سألتها وانا احس بالغيرة. كنت اعرف أن لها علاقة بالعديدين، لكني كرهت ذكرهم بحضوري.

«صديق وحسب».

كرهتها آنذاك، ثم كرهت نفسي لمجيئي عندها.

«اتودين جيم اكثر مني؟».

«لا، انما جيم يحب الحديث».

«ولماذا تظلين معي اذاً ان كنت تفضلين جيم؟» سألتها في محاولة لفتح حوار ما معها، وانا اشعر بالقرف لاني اردت ذلك.

«لا بأس بك» قالت ضاحكة «انا احبك».

«بامكاني قتلك».

«ماذا؟» هتفت متسائلة.

«لا شيء» قلت وانا اشعر بالخجل من نفسي.

«تقتلني،؟ انت مجنون يا رجل».

«ربما كنت كذلك» غمغمت وانا غاضب لجلوسي بجانب مخلوق

بشري لا استطيع التحاور معه، غاضب من نفسي لمجيئي عندها، كارها وحدتي القلقة الغاضبة.

«عليك الذهاب الى دارك لتنام» قالت «فأنت مرهق».

«ما الذي اعتدت ان تفكري به؟ سألتها بخشونة.

«الكثير».

«مثل ماذا؟».

«انت» قالت مبتسمة.

«تعلمين اني لا اعني اكثر من عشرة سنتات كل اسبوع بالنسبة اليك لا غير».

«لا، بل افكر بك كثيراً».

«اذا، ما الذي تفكرين به بشأني؟».

«افكر بكيفية حديثك حين تتحدث. كم تمنيت لو استطعت التكلم مثلك» قالت جادة.

«لماذا؟» سألتها مهاجماً.

«متى ستأخذني الى السيرك؟» طالبتني فجأة.

«يجب ان تعملي في السيرك».

«سأحب ذلك كثيراً». قالت وعيناها تتلامعان.

اردت الضحك، لكن كلماتها بدت من الصدق بحيث لم استطع الضحك حيالها.

«لا يوجد سيرك في المدينة».

«اراهن انه موجود ولا تخبرني لانك لا تريد اخذي اليه» قالت وهي تلهث.

«لكني اقول لك، لا يوجد سيرك في المدينة!».

«ومتى سيأتي؟».

«لا ادري».

«الا يمكنك ان تقرأ عنه في الصحف؟».

«لا يوجد في الصحف اي خبر عن السيرك».

«بل يوجد» قالت «لو كنت اعرف القراءة لوجدته»

ضحكت، فجرحت مشاعرها.

«يوجد سيرك في المدينة» قالت باصرار.

«ليس من سيرك في المدينة» قلت «ولكن ان اردت تعلم القراءة فسأعلمك».

اقتربت مني متضاحكة.

«اترين هذه الكلمة؟» قلت مشيراً الى الكلمة.

«نعم».

«هذه (و)»

كررت القول بعدي وهي تتضاحك.

«ماذا دهاك؟» سألتها.

ضحكت حتى استلقت على الارض.

«ما المضحك في الامر؟».

«انت» وضحكت «انت مضحك جداً».

نهضت.

«اذهبي الى الجحيم».

«لا تلعنّي، فانا لم العنك».

«آسف».

تناولت قبعتي واتجهت الى الباب.

«هل سأراك في الاسبوع القادم؟».

«ربما».

حين وصلت الرصيف نادت علي من النافذة.

«لقد وعدتني باخذي الى السيرك، آتذكر ذلك؟»

«نعم» سرت قريباً من النافذة واردفت «ما الذي تحبينه في السيرك».

«الحيوانات» قالت بكل بساطة.

احسست في قولها معنى خفيا ربما لكني لم استطع معرفته. ضحكت وصفقت النافذة.

في كل مرة اغادرها اقرر عدم زيارتها مرة اخرى. فانا لا إستطيع التحاور معها، بل اظل اسمع رغبتها الجارفة برؤية السيرك. لم تكن تحسب كلماتها. ان احبت رجلاً، فهي تحبه وحسب. العلاقات الجنسية هي كل ما تملكه، وليس من علاقة اخرى ممكنة معها، كان ذكاؤها محدودا ولم يتعد هذا الحد.

لأغلب بائعي البوليصات علاقاتهم ويحرصون على عدم تدخل بقية البائعين فيها. وفي مرة خصص لي قسم جديد من القسم الجنوبي لكي اجمع الاقساط منه، فصار الوكيل السابق لهذه المنطقة ودودا معي على

نحو مفاجيء.

«قل لي يا رايت» سألني «هل جمعت الاقساط من يونيغ في شارع شامبيلين؟».

«نعم» اجبته بعد الرجوع الى دفتري.

«هل اعجبتك؟» سألني محدقا الى وجهي.

«انها امرأة جميلة».

«هل اقمت علاقة بها ؟».

«لا، لكني اود ذلك» قلت ضاحكا.

«انظر» قال لي «اني صديقك».

«منذ متى؟» سألته مندهشا.

«لا اني صديقك فعلا».

«ما الذي يدور في ذهنك؟».

«اسمع، هذه الفتاة مريضة» قال بنبرة جادة.

«ماذا تعني؟».

«اعني انها مصابة بمرض معد» قال «ابتعد عنها» فهي على استعداد لاصابه كل من يقترب منها».

«ياه، اني سعيد لانك اخبرتني بالامر».

«كيف تنوي اقامة علاقة بها اليس كذلك؟».

«نعم».

«ابتعد عنها، سوف تصيبك».

تلك الليلة اخبرت ابن عمي بما قاله الرجل عن الانسة يوينغ.

ضحك ابن عمي.

«تلك الفتاة سليمة» قال لي «والرجل على علاقة بها. وقال لك ما قاله لكي يخيفك فلا تقترب منها. انه يحميها منك».

تلك هي النظرة التي يحملها الوكلاء السود عن النساء السوداوات. بعض الوكلاء شريرون. فان طالبوا سيدة سوداء مريضة باقساط التأمين، وكانت المرأة مستعدة لاقامة اي علاقة بهم فانهم يفعلون، مستخدمين مبالغ الاقساط كرشوة. وان رفضت المرأة يقومون بابلاغ المكتب انها متمارضة. وتخضع المرأة المتوسطة لرغباتهم لانها بحاجة ماسة الى النقود.

بصفتي وكيلاً للتأمين اضطررت للمشاركة في احدى الخدع. يبدو ان شركة الدفن قد اصدرت بوليصة كانت من وجهة نظرها متساهلة من جهة الضمانات، فقرر المسؤولون تغيير البوليصات المتداولة بين زبائنهم ببوليصات جديدة اكثر تشددا. ومن الطبيعي ان يتم الامر على نحو لا يسمح لحامل البوليصة بمعرفة التغيير إنها خدعة لم تعجبني، ولكن، لم يكن امامي ما افعله لكي لا اشارك بالعملية، غير ترك العمل والموت جوعا. لكني لم احس ان الامانة تستحق ان يجوع الانسان بسببها.

تجري الخدعة على النحو الاتي: اثناء زياراتي لمنازل حملة البوليصات لجمع الاقساط، يصحبني احد المراقبين الذي يطلب من الشخص بوليصته لكي يدققها. وكالمعتاد يكون حامل البوليصة امرأة سوداء امية، تجيء ببوليصتها من حيث تخفيها في قعر دولاب او

صندوق عتيق وتعطيها للمراقب. واثناء تسجيلي قسط المرأة في السجل، وهو ما يشغل انتباهها عما يفعله المراقب. يبدل المراقب بوليصتها بواحدة اخرى ذات لون مشابه ورقم تسلسل مشابه لكنها ذات ايراد اقل. كانت عملية قذرة وكم تساءلت عن كيفية منعها. وحين لم اعثر على طريقة آمنة لعنت نفسي ولعنت الضحايا ثم نسيت الامر كله. (ان مالكي شركات الدفن من السود هم قادة الجماعات السوداء ويحترمهم البيض).

حين وصلت مركز الاعانة احسست اني اقدم اعترافا علنيا بجوعي. كنت اجلس ساعات طوال كارها الجمع الحاشد من الجائعين حولي. اخيرا حل دوري وسألتني امرأة سوداء من الطبقة المتوسطة عن تاريخ حياتي مختصرا خلال انتظاري ادركت ان شيئا يحدث في الغرفة. سرت غمغمة هادئة بين الرجال والنساء السود، لم يعرف احدهم الآخر قبل مجيئهم هنا، اما الان فقد بدأ خجلهم بالتلاشي وبدأوا يتبادلون الحديث عن تجاربهم. قبل الان كانوا يعيشون كأفراد يخشى احدهم الآخر الى حد ما كل يبحث عن متعته الخاصة، وكل يسير في طريقه الخاص نحو «الأمركة» وبالحد المسموح به. اما الان فقد ردتهم الحياة معا، وبدأوا يتعلمون معرفة مشاعر جيرانهم للمرة الاولى. سمح لهم حوارهم ان يحسوا بجماعية حياتهم فتخلصوا من بعض خشيتهم.

ترى هل يدرك موظفو الاعانة ما يحدث؟ كلا. فلو ادركوا ذلك لو ضعوا حدا له. انهم يرون زبائنهم، بأعين وظيفتهم، لم يروا الا ما

يتيحه لهم (علمهم). آبان استماعي للاحاديث رأيت الذهن الاسود وهو يحطم الكثير من الامال الكاذبة. اذ عرف هؤلاء الناس ان الماضي قد خانهم، ورمى بهم جانباً. لكنهم لم يعرفوا ما قد يكون عليه شكل المستقبل ولم يعرفوا ما يريدونه حقا. نعم فبعض ما يقوله الثوريون صحيح اذ تمر بعض الاوقات لا تتمكن فيها الطبقات السائدة من الامساك بزمام الحكم. وها انذا اجلس لاشاهد بدايات الفوضوية. وكان السماح بمولد هذا الوعي الجديد لدى هؤلاء الناس انما هو البرهان على ان الحاكمين لا يعرفون ما يفعلونه، اذ يفترضون انهم يحاولون انقاذ انفسهم وطبقتهم. ولو فهموا ما هم مقدمون عليه لما سمحوا لملايين البشر المسحوقين والمهزومين بالبقاء معا يتحادثون لساعات، اذ من خلال حديثهم يبرز فهم جديد للحياة. وحين يتشكل المفهوم الجديد لانفسهم فلن تبدله أية قوة على وجه الارض.

غادرت مركز الاعانة بعد وعدهم بارسال الطعام الي، لكنني ايضا غادرت وقد تزودت بمعرفة لم يرد موظفو الاعانة تزويدي بها. احسست بامكانية خلق فهم جديد للحياة في اذهان المرفوضين من المجتمع الذي يعيشون فيه، اناس تصفهم جريدة «شيكاغو تريبيون» بكل احتقار بـ «العاطلين» وكأنهم تعمدوا الوصول الى حالة العجز الحالية هذه.

من يعطي هؤلاء الناس طريقة ذات معنى للحياة؟ فالنظريات الثورية تطلق على هؤلاء الناس لقب صانعي مستقبل البشرية، لكن الخطب التي سمعتها في الحديقة العامة تسخر من هذا التعريف. فهؤلاء الناس من الطبيعي ليسوا مستعدين بعدُ للثورة، انهم لم

يهجـروا حيـاتهم المـاضية باختيارهم، انما بسبب عدم قدرتهم على الاستمـرار بالعيش بالطريقـة القـديمة وعلى نحو بسيط، والان، اي معتقد جديد يمكن لهم اعتناقه؟.

ان اليوم الذي تسولت فيه الخبز من موظفي المدينة كان اليوم الذي اوضـح لي اني لست وحيـداً في وحـدتي، فلقد طرد المجتمع ملايين الآخرين معي. ولكن، كيف لي ان اكون معهم؟ كم عدد الذين يفهمون ما يحدث؟ تزاحمت الاسئلة في ذهني ولم اجد لها أية اجابة.

بدأت افهم ببطء معنى بئيتي، وبرز لدي تدريجيا احساس بالاتجاه نابع من ظروف حياتي. بدأت احس بشيء اقوى من ان استطيع التعبير عنـه. تغـيرت طريقة كلامي وتغير سلوكي. وانزاحت السخرية عني. صرت منفتحا ومتسائلا. اردت المعرفة.

لو كنت من الطبقـة الحاكمة لارسلت رجالاً الى جميع الاماكن في البلد لا لكي يتجسسوا على مجموعات العمال او لشق الاضرابات او بث الاضطراب في النقابات، انما للتعرف على اولئك الذين لا يتجاوبون مع النظام الذي يعيشون في ظله. واعلن ان الخطر الحقيقي لا ينبع من اولئك الساعين للسيطرة على الثروة باستخدام العنف او المدافعين عما يملكون باستخدام القوة، اذ كلتا المجموعتين وبافعالهما الايجابية انما تدعمان قيم النظام الذي تعيشان في ظله. الملايين التي ساخشاها هي اولئك الذين لا يحلمون بالمنافع التي تعدها الامة ذات قيمة عالية، اذ من بين هؤلاء ودون ان يعرفوا قامت الثورة وهي الان في مرحلة الركون بانتظار الوقت المناسب لتترجم نفسها بصيغة طريقة جديدة وغريبة في

الحياة.

احس ان علاقة الزنوج بامريكا هي علاقة رمزية خاصة. ويمكن تعلم الدروس من ردود الفعل الوحيدة للزنوج تجاه حالة الحصار، ونعرف من خلالها شيئا عن مستقبل امريكا. يقال للزنوج بلغة لا يمكن لهم الا ان يفهموها ان ارض وطنهم ليست لهم، وحين يتصرفون باندفاعات مشتركة بينهم وبين البيض ويحاولون اثبات حقهم الطبيعي، يرد عليهم البيض برعب، ودون ان يتوقفوا لتأمل النتائج التي قد تنجم عن يأس الزنوج النهائي. لا يحلم البيض مطلقا انهم قد يواجهون موقفا مريعا لو واجههم الزنوج بموقف من لا مطالب له، وهو موقف اكثر صعوبة من مواجهة الزنوج الذين يحتجون على المظالم الاجتماعية. تدفعني معرفتي بكيفية رد الزنوج، ان اعلن انه لا يمكن اتهام اي فرد منهم بالخيانة. وان اي فعل مندفع ليس الا الرد الانساني على اولئك الذين يحرفون بيئته الى الحد الذي يحرمه من المشاركة الكاملة في روح وطنه. فالخيانة هنا هي جريمة عامة.

جاءت اعياد الميلاد، فاستدعيت مجددا للعمل المؤقت في مكتب البريد. وهذه المرة التقيت بالعديد من الشباب البيض وناقشنا احداث العالم، وجيوش العاطلين وتصاعد مد التمييز العنصري. واستطعت هذه المرة ان أميز اختلافا في سلوكية البيض الذين التقيتهم، فلقد اضفى الحرمان عليهم نظرة جديدة الى الزنوج، وللمرة الاولى دعوني الى بيوتهم.

حين انتهى العمل في البريد، عينني مركز الاعانة مستخدما في

معهد الابحاث الطبية في واحدة من اكبر واغنى مستشفيات شيكاغو. كنت انظف غرف العمليات، واقفاص الكلاب و الفئران والجرذان والارانب، واعلف الخنازير الغينية. كنا اربعة زنوج في هذا العمل ونشغل موقعا متدنيا متذكرين ان علينا ان نحدد انفسنا ـ حين لا نؤدي عملا ـ في حيز الممرات في الطابق تحت الارض، بحيث لا نخالط الممرضات والاطباء والزوار البيض.

واجهني خيط التمييز العنصري الحاد الذي خطته ادارة المستشفى في صباح اول يوم حين سرت في احد الممرات الطويلة في الطابق السفلي، وشاهدت صفين من النساء يسرن باتجاهي. كان صف الفتيات البيضاوات اللائي يرتدين زيا ابيض منشى يلتمع بياضا. وجوه نشطة خطوات سريعة، اجساد رشيقة متناسقة، اكتاف عالية ووجوه تشع بنور الهدف. وراءهن يأتي صف الفتيات السوداوات، عجائز، سمينات يرتدين زيا قديما أشعث يسرن بتراخ، يحملن علب مسحوق الغسيل، والخرق والمكانس.. تساءلت اي قانون في الكون يمنعهن من الاختلاط؟ لن تتوقف الشمس عن دورتها لو انضمت بضع سوداوات الى الصف الاول، ولن تتوقف الارض عن دورتها لو وجدت بضع بيضاوات في الصف الثاني. لكن الصفين اللذين شاهدتهما حافظا على الوضع الاجتماعي بصيغته العرقية النقية.

من بين الزنوج الثلاثة الذين يعملون معي، واحد يقاربني عمرا اسمه بيل، وهو في الغالب اما نعسان او سكران. عذل بيل شعره وشككت انه يخفي قنينة شراب في مكان ما بين اكوام التبن التي نعلف

الخنـازيـر منها. لم يكن يحبني كما لم احبه، رغم محاولتي الجادة لأخفـاء مشـاعري. لم يكن بيننا اي شيء مشترك باستثناء سوادنا وضياعنا. وفي حين احتويت غضبي كان يسكر ليغرقه. حاولت محادثته عدة مرات، حاولت استخدام الكلمات البسيطة لاوصل له بعضا من افكاري لكنه يرد علي بالصمت العنيد. وفي احد الايام جاءني ووجهه يحمل نظرة غاضبة.

«وجدتها» قال.

«وجدت ماذا؟» سألته.

«المشكلة العنصرية القديمة التي طالما تحدثت عنها».

«ماذا بشأنها ؟».

«حسن، انها على النحو الاتي» اجابني مفسرا بكل جدية.

«لتعط الحكومة كل رجل بندقية وخمس طلقات، ثم نبدأ الصراع من بدايته. لنجعله يبدو كما كان في البداية. ومن ينتصر يحكم، سواء أكان ابيض او اسود».

ارعبتني بسـاطته. لم اكن قد التقيت زنجيا واجه عسفا وعنفا لا علاج له مثل هذا. توقفت عن شحن الافكار في ذهن بيل خشية ان تدفعه أبخرة الكحول الى مصير قاتل.

الزنجيان الآخران كانا مسنين ويعملان في المعهد منذ ما ينوف على خمس عشرة سنة. احدهما يدعى براند وهو زنجي قصير القامة، اعزب كئيب. اما الآخر - كوك - فهو طويل القامة اصفر اللون يرتدي نظارتين يقضي اوقـات فراغـه في متابعة الاحداث العالمية من خلال صحيفة

شيكـاغو تريبيون. براند وكوك يكره احدهما الآخر لسبب لم اعرفه ويقضيان اغلب الوقت في المشاجرة.

حين بدأت العمـل في المعهـد، تذكرت حلم مراهقتي أن اصير باحثا طبيا. كنت في كل يوم ارى الفتيان والفتيات يتلقون علوم الكيمياء والطب التي حرم منهـا اغلبيـة الفتيان والفتيات السود. حين اكون وحيـدا كنت اتـأمـل المواد الكيميائية الغريبة، وامد اصابعي فيها، واراقب المكائن الدقيقة وهي ترسم خطوطا حمراً وسودا على لفة الورق. في بعض الاحيان اقف لأحدق الى جدران الغرف وارضيتها والمناضد الواسعة حيث يجلس الاطباء البيض. وادركت باحساسٍ لن استطيع التعود عليه مطلقا ـ اني انما احدق الى عالم ينتمي الى عرق آخر.

اثار أهتمامي بما يحدث في المعهد سخرية الزنوج الثلاثة الذين اعمل معهم. لم يكن لديهم اي فضول «في آشياء البيض» في حين اردت معرفة ان كانت الكلاب المعالجة قد تحسنت ام لا، والفئران والجرذان التي اعطيت امصال الاصابة بالسرطان قد اظهرت دلائل الاستجابة للعلاج ام لا. اردت معرفة المبادىء التي تقف وراء فحوصات اخشايم زونديك التي تجري على الارانب، وفحوصات واسرمان على الخنازير. ولكن حين وجهت سؤالا خجلا ادركت ان الاطباء لديهم اسلوب سادي في تحقير الزنوج.

«لو عرفت اكثر مما يجب ايها الفتى، فقد ينفجر دماغك» ذلك ما قاله لي احد الاطباء في يوم ما.

صباح كل يوم سبت كنت اساعد احد الاطباء الشباب في استئصال

الحبال الصوتية من مجموعة جديدة من الكلاب. كان الهدف هو الغاء الحبال الصوتية لكي لا يزعج نباح الكلاب الاقسام الاخرى من المستشفى. كنت امسك بالكلب فيزرقه الطبيب بابرة نيمبوتال لتخديره، ثم افتح فكي الكلب فيدخل الطبيب مشرطه ويستأصل الحبال الصوتيّة. فيما بعد، حين يستعيد الكلب وعيه فانه يرفع راسه الى السقف ويفغر فاه في عواء صامت. وظل هذا المشهد منقوشا في ذاكرتي كرمز للمعاناة الصامتة.

كان النيمبوتال بالنسبة إلي سائلا رهيبا غامضا، ولكن حين سألت عن خواصه لم استطع الحصول على اجابة مفهومة. بكل بساطة، تجاهلني الطبيب قائلا «هيا جئني بالكلب التالي. ليس امامي اليوم بطولة».

صباح احد ايام السبت، وبعد ان جئت بالكلاب لاستئصال حبالها الصوتية ترك الطبيب النيمبوتال على المنضدة. التقطته فتحت السدادة وشممته. كان عديم الرائحة. فجأة جاءني براند راكضا مذهولا.

«ما الذي تفعله؟» سألني.

«اشم المادة لارى ان كان بها أية رائحة».

«وهل شممتها حقاً؟».

«نعم».

«اوه، يا الهي» هتف.

«ما بك؟».

«ما كان يجب ان تفعل هذا» صرخ بوجهي.
«لماذا؟».
امسك بذراعي وقذف بي عبر الغرفة.
«هيا!» صرخ وهو يفتح الباب.
«ما بك؟» سألته.
«علي الذهاب بك الى الطبيب قبل فوات الاوان» ترى، هل ادى بي الفضول الى تنشق شيء خطر؟
«ولكن ـ أهو سام؟».
«اركض يا فتى!» قال وهو يجرني «ستسقط ميتا».
ملأني الرعب. سحب براند ذراعي وركضت خارجا من الغرفة وعبر الممر الخلفي ثم الى غرفة اخرى، ثم عبر ممر طويل. اردت ان اسأل براند عن الاعراض التي ينبغي علي انتظارها، لكننا كنا نركض اسرع مما يجب. توقف براند اخيرا وهو يلهث. قلبي يدق بعنف مجنون والدم يصعد الى رأسي. ثم وقع براند ارضا وتمدد على ظهره وانفجر بالضحك الصاخب وجسده يهتز. ضرب الارض بكفيه وتأوه وضحك وضرب.
حاولت السيطرة على غضبي، متسائلا ان كان احد الاطباء البيض قد كلفه بهذه المزحة. نهض ومسح الدموع من عينيه وهو ما يزال يضحك. سرت مبتعدا عنه. اني غاضب فلحق بي.
«لا تغضب» قال بين نوبتي ضحك.
«اذهب الى الجحيم».

«لم استطع منع نفسي وضحك» «نظرتَ الي كما لو انك مستعد لتصديق كل ما اقوله. يا فتى، كنت مرعوبا».

استند الى الجدار، وعادت اليه نوبة الضحك، فصار يضرب قدميه على الارض. كنتُ غاضبا، لاني احسست انه سينشر القصة. كنت اعرف ان بيل وكوك لا يجتازان حاجز الامان حيث يعيش الزنوج، ولا يتورطان مطلقا بفعل اي شيء مثل هذا. فان سمعا بالقصة فسوف يضحكان مني مدة اشهر.

أخذ نفسا عميقا ثم سار يتقدمني. لحقته عائدا الى الغرفة التي تأوى الكلاب. ظل طوال اليوم وهو يقوم بعمله، يتوقف برهة ويضحك، ثم يكتم الضحكة بيده وهو ينظر الي بزاوية عينه ويهز رأسه. ظل يضحك مني مدة اسبوع. احتفظت بهدوء اعصابي وتركت له الفرصة ليستمتع بمزحته. اخيرا عرفت خواص النيمبوتال بعد الرجوع الى الكتب الطبية لكني لم اخبر براند بذلك ابدا.

صباح احد الايام الصيفية، وبعد بدء العمل بقليل جاءني صبي حاملا ساعة توقيت.

«الدكتور ـ طلب مني ان اضبط الوقت الذي تستغرقه في تنظيف الغرفة» قال «اننا نحاول زيادة كفاءة العمل في المعهد»

«اني اقوم بعملي، وانتهى منه في الوقت المناسب».

«تلك هي اوامر المدير».

«لم لا تقوم بالعمل بنفسك من باب التغيير» انفجرت غاضبا.

«اسمع» قال «هذا هو عملي. وعليك باداء عملك».

تناولت الخرقة والدلو، رششت المعقم في الغرفة ومسحت الدماء المتجمدة، وفضلات الكلاب والفئران والارانب. درجة الحرارة الاعتيادية في الغرفة تسعون درجة فهرنهايت، ولكن حين تتركز اشعة الشمس على نوافذ الاضاءة ترتفع درجة الحرارة لتتجاوز المائة. بقيت عاري الصدر، اعصر الخرقة وانا اتحرك بآلية اشبه بالمكائن وانا استمع الى الفتى وهو يضغط زر ساعة التوقيت حتى انجزت عملي.

«حسن، كيف تم الامر؟» سألته.

«استغرقت سبع عشرة دقيقة لتنظيف الغرفة الاخيرة» قال «ويجب ان يكون هذا هو الوقت الذي تستغرقه في تنظيف بقية الغرف».

«لكن تلك الغرفة لم تكن قذرة جدا».

«لديك سبع عشرة غرفة لتنظفها» استمر بالقول كما لو اني لم اقاطعه «سبع عشرة في سبع عشرة تساوي تسعا واربعين دقيقة» وكتب في دفتره الصغير «بعد الغداء نظف السلالم الحجرية للطوابق الخمسة. لقد وقت الزمن اللازم لاحد الفتيان لتنظيف درجة سلم واحدة وضربت الزمن اللازم بعدد درجات السلم. يجب ان تكمل العمل في الساعة السادسة».

«افترض اني احتجت الى الراحة».

«تدبر امرك» قال لي وتركني.

لم اشعر بالعبودية كما شعرت بها حين كنت انظف هذه السلالم الحجرية بعد ظهيرة كل يوم. كنت اعمل بالوقت الضائع، ابلل خمس درجات وارش مسحوق الغسيل عليها ثم يجيء طبيب ابيض او

ممرضة وبدل ان يتحاشيا الدرجات التي يغطيها الصابون فانهما يسيران عليها ويوسخان الدرجات التي انتهيت من تنظيفها. ولاتحاش ذلك صرت انظف كل درجتين معا وبأبعاد يمكن لطفل في العاشرة من عمره ان يعبرها. ولكن دون فائدة. بقي البيض يدوسون باقدامهم في الماء الوسخ ويوسخون الدرجات النظيفة الأخر. ان كرهت البيض عديمي التفكير في كل مرة وفي اي وقت فاني كرهتهم انذاك. لم تبدر من اي شخص ابيض بادرة لطف طوالٰ بقائي في المعهد بان يتحاشى درجة سلم مبلله. اكون راكعا على ركبتي امسح والعرق يغطيني، وانفث كل ما املك من طاقة محدودة من جسدي الذي لا ينال الا غذاء ضئيلا، فاسمع وقع اقدام تقترب. اتوقف والعنهم هامسا: «اولاد الـ.. سوف يوسخون السلالم مرة اخرى، لعن الله ارواحهم !».

في بعض الاحيان يلاحظ احدهم انه لطخ الدرجات بالماء القذر فينظر الي بازدراء وابتسامة ويقول:

«يا فتى، اننا نشغل وقتك كله اليس كذلك؟» ولا اكون قادرا على الرد.

استمر الشجار بين براند وكوك. ورغم انهما يعملان يوميا في بناية حيث يصنع تاريخ العلم، لكن نور الفضول لم يسقط على عينيهما على الاطلاق. كانا متاقلمين في (مكانهما) العرقي، وتعلما رؤية قسم من البيض وعالم البيض وحسب، كما ان البيض ايضا تعلموا بدورهم، ان لا يروا الا قسما من حياة السود وعالمهم.

ربما كان يعوز براند وكوك الاهتمام الذي يستغلهما، فضلا

يستشيطان غضبا لاتفه الاسباب ويخترعان الاسباب ليكره احدهما الآخر لكي يكون لديهما مبرر للاحاسيس العميقة. او ربما كان في اعماقهما توتر غامض نابع من طريقتهما المثيرة للغضب المزمن في الحياة، وألم لا يعرفان سببه، مثل تلك الكلاب التي استؤصلت حبالها الصوتيه، فيظلان يدوران ويعويان بلا صوت في الهواء حين تضربهما موجة الالم. على اية حال، كانا يتشاجران حول الطقس، الرياضة، الجنس، الحرب، السباق، السياسة والدين. ولا يعرف اي منهما الكثير عن المواضيع التي يناقشانها، ويبدو انهما كلما قلّت معرفتهما الشيء الذي يناقشانه كان نقاشهما فيه افضل.

وصلت حمى الحرب بين العجوزين ذروتها في ظهيرة احد ايام الشتاء. كان يوماً باردا الى حد لا يصدق، وظلت الرياح الجليدية تجوب شوارع شيكاغو بقوة رهيبة. كانت الغرفة المليئة بالحيوانات مغلقة، لاننا اصررنا على الدوام على ان يسمح لنا بساعة واحدة نأكل ونرتاح خلالها. كنت اجلس مع بيل فوق صناديق خشبية نأكل غداءنا الموضوع في الاكياس الورقية وبراند يغسل يديه عند الحوض. كوك يجلس على كرسي متداع يأكل تفاحة ويقرأ الشيكاغو تريبيون.

بين اونة واخرى يرفع احد الكلاب الخرس انفه الى السقف ويعوي بلا صوت. الغرفة مليئة بصفوف متراصة من المساطب. على كل منها طبقات من الاقفاص فيها الكلاب و الفئران والجرذان والارانب والخنازير. كل قفص منها يحمل كتابة علمية يستحيل قراءتها. على طول جدران الغرفة اشرطة بيانات عليها خطوط متعرجة حمر وسود

تؤشر نجاح تجربة ما او فشلها. اصوات الخنازير تطفو فوقنا دون ان يثير اهتمامنا. وصوت خشخشة التبن في اقفاص الارانب عند تحركها القلق. فأرة تتراكض في سجنها الحديدي. ضرب كوك بالصحيفة على الجدار ليلفت انتباهنا.

«يقول هنا» غمغم وقضمة التفاحة تملأ فمه «ان هذا هو ابرد يوم

وجلست وبيل دون ان نهتم بما يقوله. وضحك براند بهدوء.

«ما الذي يضحكك بحق الجحيم؟» سأله كوك.

«لا يمكن ان تصدق كل ما تقوله التربيون اللعينة» قال براند.

«وكيف لا يمكن؟» تساءل كوك «انها اعظم صحف العالم».

لم يرد عليه براند، بل هز رأسه مشفقاً وضحك مرة اخرى.

«توقفْ عن هذا الضحك اللعين!» قال كوك غاضبا.

«اني اضحك قدر ما أشاء» رد عليه براند «انت لا تعرف ما تقول. تقول صحيفة (الهيرالد ايغزاميز) انه ابرد يوم منذ ١٨٧٣».

«لكن (التربيون) تعرف افضل» جادله كوك «انها اقدم من (الايغزاميز)».

«التربيون اللعينة لا تعرف شيئا!» قال براند بصوت غطى على صوت كوك.

«وكيف تعرف بحق الجحيم؟» سأله كوك وغضبه يتصاعد.

تصاعد الشجار حتى صرخ كوك انه لو لم يخرس كوك فانه سوف «يقطع عنقه الأسود».

استدار براند وهو على المغسلة ويداه تقطران الماء والصابون وعيناه

تتوهجان.

«اسحب ما قلته» قال براند.

«لن اسحب شيئاً! فما الذي ستفعله!؟»

تبادل العجوزان الزنجيان نظرات التحدي.

وتساءلت ان كان شجارهما جديا هذه المرة، ام سيتحول الى جدال لا ضير فيه كما يحدث كل مرة.

فجأة رمى كوك صحيفة شيكاغو تربيون و استل سكينا طويلا من جيبه، ضغط بابهامه على الزر فالتمع الفصل خارجا. تراجع براند بسرعة والتقط ملقط الثلج المعلق فوق المغسلة.

«ارم سكينك» قال براند.

«ابتعد عني، والا قطعت عنقك» حذره كوك. تقدم براند حاملاً ملقط الثلج فابتعد كوك عن مداه. ظلا يدوران مثل مصارعين في الحلبة. تقافزت الفئران والجرذان المصابة بالسرطان والسل في اقفاصها. وصفرت الخنازير خوفا. كشرت الكلاب المصابة بداء السكر ونبحت دون صوت نحوهما. رفعت ارانب اخشايم ـ زوندك اذانها وحاولت الاختباء في زوايا اقفاصها. خفض كوك نفسه ثم قفز مشرعا سكينه. قفزت واقفا، وقفز بيل معي وقد آخرستنا الدهشة. تراجع براند. بدت القسوة في عيني الرجلين وتنفسا بعمق.

«هيه. توقفا!» صرخت محذرا.

«هذان الأحمقان يتقاتلان جديا» قال بيل مذهولا صار كل منهما يضرب الهواء بسلاحه الى الاعلى والى الاسفل حول المساطب الحديدية

فجأة هجم براند ودفع كوك الى الوراء. امسك كوك بيد براند ليبعد ملقط الثلج عن صدره. تخلص براند منه وهاجمه من جديد، فدفعه نحو المسطبة الحديدية المليئة باقفاص الحيوانات.

اختل توازن المسطبة برهة ثم سقطت.

مثل قناني البولينغ، وقعت مساطب الحديد بعضها على بعض حتى سقطت كلها على الارض محدثة صوتاً يشبه صوت انهيار السقف. تغير مشهد الغرفة كله اسرع من رمشة العين. وقف براند وكوك وقد تركزت عين كل منهما في الآخر، وسلاحاهما لا يزالان مشهرين، لكنهما وعيا على نحو غامض الخراب الذي حل.

بسقوط المساطب الحديدية، انفتحت ابواب الاقفاص. وتراكضت الفئران والجرذان والكلاب والارانب على الارض برعب وحشي. تصايحت الخنازير كما لو حل يوم القيامة. وهنا وهناك حيوانات سحقتها المساطب والاقفاص بثقلها.

نظرنا نحن الاربعة في وجه بعضنا بعضا. كنا نعرف ما يعنيه كل هذا. ان نفقد عملنا. كانوا ينظرون الينا كأغبياء سود، ولو شاهد الاطباء هذه الفوضى لعدوها البرهان النهائي. ركض بيل الى الباب للتأكد من اقفاله. نظرت الى الساعة ورأيتها تشير الى الثانية عشرة والنصف. حسن، لدينا مهلة نصف ساعة.

«هيا» قال بيل «علينا تنظيف هذا المكان».

نظر براند وكوك بعضهما الى بعض نظرتي شك.

«اعطني سكينك يا كوك» قلت.

«لا! خذ ملقط التلج من براند أولا» قال كوك.

«عليك اللعنة!» قال براند «خذ سكينة أولا» سمعنا طرقة على الباب.

«ش ش ش» قال بيل.

انتظرنا. سمعنا وقع خطوات تبتعد.

وفكرت باننا جميعا سنفقد اعمالنا.

كان اقناع المتقاتلين برمي سلاحيهما مهمة شاقة، لكننا نفذناها اخيراً وامكننا البدء بترتيب الامور. ببطء شديد انحنى براند. وامسك باحد طرفي المسطبة. انحنى كوك ليساعده. بدا ان كليهما تصرف وكأنه كان يحلم. بعد قليل صرنا نعمل بجنون ونحن نرقب الساعة.

تآمرنا ابان عملنا على ابقاء المشاجرة سرا، اتفقنا على ابلاغ الاطباء ان سألوا ـ باننا لم نكن في الغرفة خلال ساعة الغداء، احسسنا ان هذه الكذبة ستفسر عدم فتح الباب عندما طرقت.

اعدنا ترتيب المساطب ووضعنا الاقفاص عليها، ثم واجهتنا المهمة المستحيلة لتصنيف الفئران والجرذان المصابة بالسرطان، وكلاب داء السكر، وارانب اخشايم ـ زوندك، وخنازير واسرمان. يعتمد بقاؤنا في عملنا أو عدمه على مدى ذكائنا في اخفاء كل دلائل المشاجرة. كانت احجية بحتة، لكن علينا ان نحاول اعادة الحيوانات الى اقفاصها على نحو صحيح. كنا نعرف ان بعض الفئران والجرذان يجب وضعها في اقفاص محددة، لكننا لم نعرف أيا من الفئران توضع في اي قفص. لم نعرف الفأرة المسلولة من تلك المصابة بالسرطان ـ فلقد عمل الاطباء البيض على الأبقاء على جهلنا. لم يضيعوا وقتهم بالرد على سؤال واحد

وحسب، رغم عملنا في المعهد كنا بعيدين عن معنى التجارب كما لو كنا نعيش على سطح القمر.

ضحك الاطباء مما اسموه اهتمامنا الطفولي بمصير الحيوانات.

بدأنا بتصنيف الكلاب، وهي مهمة سهلة الى حد ما، لاننا استطعنا تذكر حجم ولون اغلبها. لكن الفئران والجرذان والخنازير تاهت علينا كليا.

جمعنا رؤوسنا وفكرنا، هنا في العالم السفلى لاعظم معهد علمي. عقدنا مؤتمرا علميا غريبا، يعتمد مصير معهد الابحاث الطبية على ما ستفعله ايدينا الجاهلة السوداء.

تذكرنا عدد الفئران والجرذان أو الخنازير - اذ نمسك بهم عدة مرات في اليوم الواحد - التي توضع في كل قفص، ورتبنا الامر بحيث نضع العدد اللازم منها في القفص دون تمييز، كل ما نستطيع الامساك به منها من بين الحيوانات المتراكضة على الارض. اكتشفنا نقصان عدد الفئران والجرذان والخنازير - اذ قتل العديد منها اثناء المشاجرة. حللنا هذه المشكلة بان اخذنا من بين الحيوانات السليمة من الاقفاص الاخرى ووضعناها مع الحيوانات المريضة. كررنا هذه العملية حتى تأكدنا من اكتمال عدد الحيوانات التي يجري الاطباء عليها تجاربهم.

اخيرا جاء دور الارانب. قسمنا الارانب الى قسمين: تلك التي يغطي الفرو بطونها وتلك التي لا يغطي الفرو بطونها. كنا نعرف ان الارانب ذوات البطون الحليقة اذ تغطي معرفتنا العلمية هذا الجانب لأن من بين اعمالنا حلق بطون الارانب تجري عليها اختبارات اخشايم -

زونـدك. ولكن الى اي قفص ينتمي الارنب الفلاني؟ لم نكن نعرف . حللت المشكلة على نحو بسيط. عددت الارانب الحليقة، وكان عددها سبعـة عشر ارنبا. وعددت اقفاص تجربة اخشايم ـ زونديك وبدأت بوضـع الارانب الحليقة فيها عشوائيا. ومرة اخرى افلحنا في تدبير الامر عدديا.. فلقد علمتنا امريكا البيضاء كيفية العد في الاقل..

أخـيرا قمنـا بلف الحيوانات الميتة في اوراق الجرائد ورميناها في صفيحة النفايات .

قبل الواحدة ببضع دقائق كانت الغرفة في احسن حال، اعني بذلك ذلك الحال الذي نستطيع نحن الزنوج ادراكه. فتحت الباب وجلسنا ننتظر ونحن نتهامس ونحلف سرا ونتساءل عن ردة فعل الاطباء.

اخيرا جاء احد الاطباء، رمادي الشعر، ابيض الرداء، يضع نظارات طبيـة، ذو كفاءة،جاد، كئيب، جاء حاملا صينية عليها قنينة تحوي سائلا غامضا وابرة.

«فئراني من فضلك».

تقدم كوك ليخدمه. كتمنا انفاسنا. جاء كوك بالقفص الذي يعرف ان الطبيب يطلبه دوما في تلك الساعة وقدمه له. اخرج كوك الفئران واحدة بعد الاخرى وقدمها الى الطبيب الذي زرقها بالسائل الغامض تحت جلدها وكان جادا.

«شكرا يا كوك» غمغم الطبيب.

«عفوا سيدي» غمغم كوك وهو يكتم دهشته.

بعد ذهاب الطبيب نظر الواحد منا الى الاخر، ونحن لا نملك الجرأة

لنصدق ان سرّنا سيظل مكتوما. كنا من اللهفة بحيث لم نعرف ان كان علينا ان نضحك او نشتم. جاء طبيب آخر.

«اعطني الأرنب رقم ١٤ من مجموعة (أ ـ ز)».

«نعم سيدي» قلت له.

جئته بالارنب فأخذه الى الطابق الاعلى الى غرفة العمليات. انتظرنا الصدى. ولم يأت.

طوال بعد الظهيرة جاء الاطباء وذهبوا. اركض الى الغرفة ـ بعد ان اسرق بضع ثوان من عملي في تنظيف السلالم ـ لأسأل عن التقدم الذي أحرز، فاعلم ان الاطباء لم يشكّوا بشيء. عند انتهاء وقت العمل احسسنا بالانتصار.

«لن يعرفوا ابدا» قال كوك متفاخرا بهمس. رأيت براند يتوتر. فعرفت انه يتلهف على مجادلة كوك في تفاؤله، لكن ذكرى المشاجرة كانت لا تزال طرية في ذهنه فمنعته من الكلام.

مرّ يوم آخر ولم يحدث شيء. ثم يوم آخر. فحص الاطباء الحيوانات وكتبوا كلمة في دفاترهم السود وفي الدفاتر الكبيرة، وظلوا يخطّون خطوطا سودا وحمرا على المخططات.

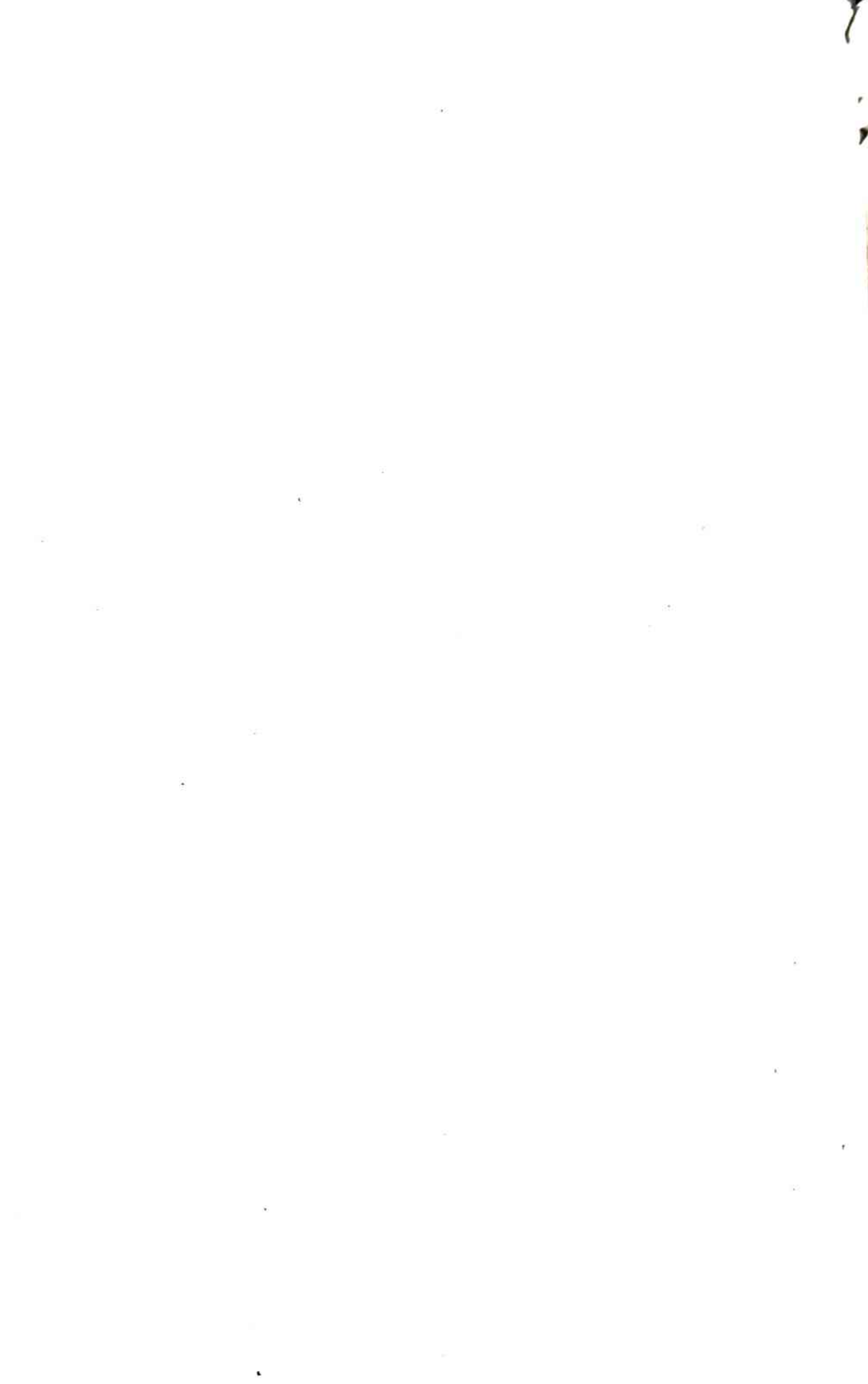
مر اسبوع فاحسسنا اننا خرجنا عن نطاق الخوف. لم يطرح سؤال واحد.

ومن الطبيعي اننا كنا نحن السود الاربعة من التواضع بحيث لم نعلن عن مساهمتنا، لكننا طالما تساءلنا عما جرى في المختبرات بعد تلك الفاجعة السرية.

•

هل ان نظرية علمية كانت قد وصلت الى مشارف الاثبات لتكون في خدمة الجمهور وقد غض النظر عنها بسبب اكتشاف غير متوقع توصل اليه في ذلك اليوم الشتوي البارد؟ هل حورت بعض المبادىء التي يجري اختبارها في ضوء براهين جديدة مهمة؟ هل غضب احد الباحثين الجديين من اولئك الذين يحملون ساعات التوقيت ويخوضون دون اهتمام في الماء ليلطخوا درجات السلم التي ابذل جهدي لابقائها نظيفة؟ هل غضب احد هؤلاء لدى القاء نظرة خاطفة على الحقيقة العلمية الجديدة؟ حسن، اننا لم نسمع ابدا..

تأملت طويلا، الم يكن من واجبي ان اذهب الى مكتب المدير واخبره بما حدث، ولكني في كل مرة افكر بالامر، اتذكر ان المدير هو الذي امر الفتى بالوقوف لمراقبتي وتسجيل توقيت حركاتي بساعة التوقيت. انه لم يعدني مخلوقا بشريا. انا لا اشاركه في عالمه. انا اكسب ثلاثة عشر دولارا في الاسبوع وعلي مسؤولية اعالة اربعة اشخاص، فهل يتعين علي المخاطرة بثلاثة عشر دولارا بمثل هذا التصرف المثالي؟ في هذه الحالة سوف يكرهني براند وكوك لو ابلغت عنهما لانهما سيطردان من عملهما. لقد احتفظت بنا المستشفى نحن الزنوج الاربعة وكأننا من الأقرباء المقربين للحيوانات التي نعتني بها، فرموا بنا معا في ممرات عالم المستشفى السفلي يعزلنا حاجز نفسي شاسع عن العمليات المهمة الجارية في بقية اقسام المستشفى ـ كما ابقتنا امريكا سجناء ظلمة عالم الحياة الامريكية السفلي مدة ثلاثمائة عام ـ فخلقنا قواعدنا الخاصة في الاخلاق والقيم والولاء.





اعمال جيمس بالدوين

- (١٩٢٤ - ١٩٨٨) -

- اذهب وقلها على الجبل.(رواية) ١٩٥٣
- زاوية آمين . (رواية) ١٩٥٦
- غرفة جيوفاني . (رواية) ١٩٥٦
- ملاحظات فتى أسود. (مجموعة مقالات) ١٩٥٥
- لا أحد يعرف اسمي. (مجموعة مقالات) ١٩٦١
- بلد آخر. (رواية) ١٩٦٢
- النار في المرة القادمة.(مسرحية) ١٩٦٣
- أحزان السيد شارلي. (مسرحية) ١٩٦٤
- الذهاب للقاء الرجل. (مجموعة قصص) ١٩٦٥
- قل لي متى رحل القطار. (رواية) ١٩٦٨

اعمال ريشارد رايت

- (١٩٠٨ ـ ١٩٦٠) -

- الفتى الأسود. (رواية) ١٩٤٠
- ابناء العم توم. (رواية) ١٩٣٨
- الرجل الذي عاش متخفياً.(رواية) ١٩٤٢
- الرافض . (رواية) ١٩٥٣
- العطلة الوحشية . (رواية) ١٩٥٤
- الحلم الطويل. (رواية) ١٩٥٨
- اسمع ايها الأبيض. (رواية) ١٩٥٧



دار المأمون للترجمة والنشر

تأسست في منتصف عام ١٩٨٠ لتتولى مسؤولية الترجمة ونشر المطبوعات الدورية الناطقة باللغات الاجنبية والمطبوعات المترجمة من والى اللغة العربية وبما يؤمن الاسهام الفعال في عملية التواصل والتفاعل الحضاريين بين العراق والعالم .

تصدر دار المامون الصحف التالية : -

١ - جريدة بغداد اوبزرفر - يومية سياسية ناطقة باللغة الانكليزية .
٢ - مجلة بغداد - شهرية سياسية عامة ناطقة باللغة الفرنسية .
٣ - مجلة كلكامش - مجلة الثقافة العراقية الحديثة - فصلية ثقافية ناطقة باللغة الانكليزية .

وتترجم الدار كتبا من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية واخرى من اللغات العربية الى اللغات الاجنبية وتصدرها .
كما تقدم خدمات الترجمة الفورية والتحريرية للمؤتمرات والندوات الدولية داخل العراق وخارجه .

ـ صدر عن دار المأمون الكتب الاتية المترجمة الى العربية ـ حسب تأريخ نشرها

العنوان	السنة	تأليف	ترجمة
١ ـ دليل مترجم المؤتمرات	١٩٨١	جان هيربرت	سمير عبد الرحيم الچلبي
٢ ـ رباعية الحرب (قصص الادب الانكليزي)	١٩٨٥	جورج ماكبث	ياسين طه حافظ
٣ ـ فن الرواية (دراسة نقدية)	١٩٨٦	كولن ولسن	محمد درويش
٤ ـ العاصفة (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٥ ـ كلب الصيد الابيض ذو الاذن السوداء (رواية من الادب الروسي)	١٩٨٦	جافرييل تروبيولسكي	عبد الواحد محمد
٦ ـ مكبث (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٧ ـ الملك لير (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
٨ ـ بين الفن والعلم (دراسة نقدية)	١٩٨٦	دولف رايسر	د. سلمان الواسطي
٩ ـ بلاد الثلوج (رواية من الادب الياباني)	١٩٨٦	يوسوناري كاواباتا	لطفية الدليمي
١٠ ـ مدن لا مرئية (رواية من الادب الايطالي)	١٩٨٦	ايتالو كالفينو	ياسين طه حافظ
١١ ـ السيدة دالاواي (رواية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	فرجينيا وولف	عطا عبد الوهاب
١٢ ـ جن (رواية من الادب الفرنسي)	١٩٨٦	الان روب غرييه	د. سعيد علوش وخديجة بناني
١٣ ـ عطيل (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا

١٤ ـ هاملت (مسرحية من الادب الانكليزي)	١٩٨٦	وليم شكسبير	جبرا ابراهيم جبرا
١٥ ـ شكسبير والانسان المستوحد (دراسة نقدية)	١٩٨٧	جانيت ديلون	جبرا ابراهيم جبرا
١٦ ـ الحداثة (الجزء الاول) (دراسة نقدية)	١٩٨٧	مالكم برادبري وجيمس ماكفرلن	مؤيد حسن فوزي
١٧ ـ صناعة المسرحية (دراسة نقدية)	١٩٨٧	ستيوارت غريفتش	عبدالله الدباغ
١٨ ـ القطار السريع (رواية من الادب الالماني)	١٩٨٧	ارمگارد كوين	اقبال ايوب
١٩ ـ الازهار البرية (مجموعة قصص قصيرة من الادب الامريكي)	١٩٨٧	ارسكين كالدويل	علي الحلي
٢٠ ـ حبة قمح (رواية من الادب الافريقي)	١٩٨٧	نغوغي واثيونغو	سلمان حسن ابراهيم
٢١ ـ قبو البصل (قصص قصيرة من الادب الالماني)	١٩٨٧		د. سامي حسين الاحمدي
٢٢ ـ معجم التعابير الاجنبية في اللغة الانكليزية	١٩٨٧	ب. أ. فثيان	سمير عبد الرحيم الچلبي
٢٣ ـ مصطلحات المؤتمرات	١٩٨٧	جان هيربرت	سمير عبد الرحيم الچلبي
٢٤ ـ الثعلب (رواية من الادب الانكليزي)	١٩٨٧	د. هـ لورنس	نمير عباس مظفر
٢٥ ـ مذكرات مالوان عالم الاثار وزوج اجاثا كريستي	١٩٨٧	ماكس مالوان	سمير عبد الرحيم الچلبي
٢٦ ـ الرجل العاشر (رواية من الادب الانكليزي)	١٩٨٧	غرَيَم غرين	هادي عبد الله الطائي
٢٧ ـ النفق (رواية من الادب الاسباني)	١٩٨٧	ارنستو ساباتو	مروان ابراهيم صديق
٢٨ ـ حوار الرؤية (دراسة فنية)	١٩٨٧	ناثان نوبلر	فخري خليل
٢٩ ـ ملحمة رامايانا (من الادب الهندي)	١٩٨٧	ر. ك. نارايان	د. جوزيف نادر بولس

٣٠ ـ جويس (دراسة نقدية) ١٩٨٧ جون كروس عبدالوهاب الوكيل

٣١ ـ الورقة الخضراء (مختارات شعرية من الادب السوفييتي المعاصر) ١٩٨٧ ايغور يرماكوف د. عباس خلف

٣٢ ـ الخطوات الضائعة (رواية من ادب امريكا اللاتينية) ١٩٨٧ اليخو كاربنتير سالم شمعون

٣٣ ـ الانطباعية (دراسة فنية) ١٩٨٨ جأن ليماري فخري خليل

٣٤ ـ ايلول بلا مطر (قصص قصيرة من الادبين الانكليزي والامريكي) ١٩٨٨ جبرا ابراهيم جبرا

٣٥ ـ الازرق ... الازرق ١٩٨٨ انا زيجرز د. سامي حسين الاحمدي

٣٦ ـ بحر ساركاسو الواسع ١٩٨٨ جين ريز فلاح رحيم

٣٧ ـ المعنى الادبي ١٩٨٨ وليم راي د. يوئيل يوسف عزيز

٣٨ ـ الاوهام البصرية ١٩٨٨ نيكولاس ويد مي مظفر

٣٩ ـ الحلو ـ المر ١٩٨٨ موريس بونس رعد اسكندر

٤٠ ـ طريق فلاندرا ١٩٨٨ كلود سيمون باسيل قوزي

٤١ ـ فن الشرق الادنى القديم ١٩٨٨ سيتن لويد محمد درويش

٤٢ ـ موسوعة المصطلح النقدي ١٩٨٨ د. سي. ميويك د. عبدالواحد لؤلؤة

٤٣ ـ جاك بريڤير ١٩٨٨ (قصائد مختارة) سامي مهدي

٤٤ ـ مئة عام من الرسم الحديث ١٩٨٨ جي. إي مولر فرانك ايلغر فخري خليل

٤٥ ـ كوكورو ١٩٨٨ ناتسومي سوسكي عبدالواحد محمد

٤٦ ـ الليلة الثانية عشرة ١٩٨٩ وليم شكسبير جبرا ابراهيم جبرا

٤٧ ـ الحرب والمجتمع في اوربا ١٨٧٠ ـ ١٩٧٠ ١٩٨٩ براين بوند سمير عبد الرحيم الجلبي

٤٨ ـ زبد الحديد ١٩٨٩ ايڤان أوخانوف د. حسن البياتي

٤٩ ـ طفيليات العقل ١٩٨٩ كولن ولسن محمد درويش

مصمم الغلاف : سلمان الشهد ....

ترسم هاتـان القصتان صورة للوجه الاخر لمجتمع الرفاهية. الوجه المظلم الذي يشكل جداراً لا يمكن اختراقه ولا يمكن رؤية ما وراءه،وقد لا تكون وراءه الا ظلمة اخرى.

من أين تبدأ الحرية، وأين تنتهي؟ انها قصص تجري احداثها في المجتمـع الزنجي في امـريكـا،ويرويها اثنان من كبار الادباء الزنوج فيها. عاش كل منهما في اجواء ما يسمى بـ (حلم الرفاهية) وعـانى من اعبـاء وقيود حرية البيض التي يرزح الزنوج فيها ويدفعون ثمنها غالياً من حريتهم لا بل من حياتهم التي تتهددها مخاطر شتى. ويندفع واحدهم للتشبث بأهداب حرية زائفة حتى يخيـل اليـه انهـا الحرية نفسها التي يحيا في نعيمها الانسان الابيض. هذا النعيم الذي يتوازى الاسود معه دون ان يلمس تخومه، فيهرب الى عالم الحلم والخيال، أو الى الهجرة الى عوالم قديمة تمثلها اوربا حيث لا يحمل الزنجي عار زوجة زنجية.

هاجـر جيمس بالدوين وريشارد رايت الى فرنسا طلبا لحرية منعهـا عنهما بلدهما، وعاشا ليكتب كل منهما عن الضيم الذي يتنفسه زنوج امريكا حتى يختنق انسانهم ويظل يقاتل من اجل هامش الحرية الذي قد يحصل عليه.

السعر: دينار واحد

دار المأمون للترجمة والنشر
بغداد ١٩٨٩